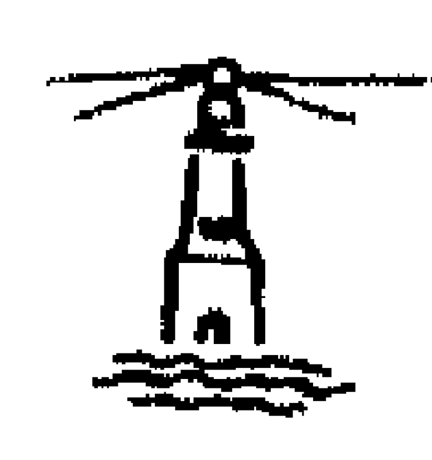
اقرأ

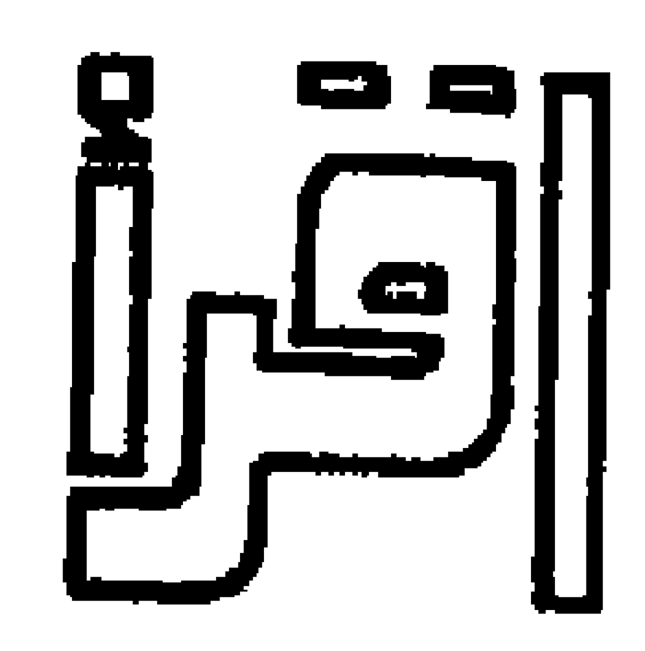
فوزية مهران

آية وبشرى

ذكريات



دار المعارف



[٥٣٢]



فوزية مهران





دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

مقدمة

لما رحل عنا رفيق عمرى.. وجدتنى فى غمرة الأحزان أقول:

« لا أفرح بعدها أبدًا »

- ولا يخفق قلبى بسرور مساحييت ومهما كانت البشرى - وسط الخطب.. وبين الخوف والجزع.. أحسست أنى ظلمت نفسى - أقرر ما ليس لى به علم.. أقول ما لا يصح أو ينفع.. أهتف بما لا يجوز - وأنطق بغير الحق.

- إن هى إلا زلزلة الموقف.

ورفعت وجهى إلى السماء « يارب أعنى »

عدت فتذكرت.

« لاخلاص ولا منجى إلا فى التوجه إلى الله.. والأنس به »

لا يغدو وحيدًا من كان الله معه.. وعلىّ أن أحرص على هذه « المعية » الفائقة.

لا يخشى الوحدة من يذكر الله ويطمئن قلبه به.

لا يعود « فردًا » من يسلم وجهه إليه ولا يعقب لحكمه..

لا يموت من القهر من يأتى الله بقلب سليم.. ويعمل صالحًا..
ويسأل فرجًا وفرقانًا..

سبحانه وسعت رحمته كل شىء.. ووسع كل شىء علمًا

يجعل الله له آية.. وحنانًا من لدنه وعلمًا..

ويجعل له نورًا وودًّا.

هدأت لما تذكرت

تذكرت فأبصرت..

رطبت جوفى ولسانى بآية بينة..

﴿وبشر الصابرين﴾

جاءتنى الآية بالبشرى -

تدفق النور علىّ.. ربط الله على قلبى. عبرت إلى رؤيا مبصرة..

قرن الصبر بالبشرى -

وهكذا آيات الكتاب الحكيم - هدى وبشرى للمؤمنين -

فيها العلاج والشفاء.. ومؤشر الراحة والطمأنينة.. ولمعة الخروج من الظلمات إلى النور..

إقامة القرآن.. تعنى ترقية الضمير والوجدان.. ترك الخوف والحزن.. تربية النفس إعادة صياغتها من جديد.. استلهام المواقف والأحداث.. الموعظة الحسنة.. تقييمنا للأشياء بمقياس الدين.. به نسترد توازننا.. ننمى سلامنا الداخلى والعام.. نقيم الميزان فى كل

ما يصدر عنا من معاملات، ونركن إلى حب الله.

من يحبه الله أكثر.. يختبره دومًا ويبتليه ليظهر معدنه.. ويصقل قوامه.. يصنعه على عينه.. ويوحى إليه بسلاح الصبر الجميل.. أسلوب «أولى العزم من الرسل»

ولا يذرنا أفرادًا فى ساحة الصراع..

تمدنا آياته بالجلاء والوضوح .. وتعمل فينا باستمرار.. تهئ لنا فرصة الاختيار.. وتجيئنا وسط الملمات والخطوب كتداعى المعانى.. ولحظات التنوير وبشرى الاكتشاف والإدراك.

فإذا الشدة تشد أزرنا، وتثبت أقدامنا.. وتعدنا للجهاد..

وفى ضوء هذه المعرفة يكون التحول.. والتطهر.. والتطوير..

ندرك أن علينا الاحتمال.. والصمود.. والنهوض من جديد.. نحيل الحزن دفعة خلاقة للاستمرار والعطاء.. وتخفيف عناء وشقاء الآخرين..

نمارس الصبر الجميل - حيث لا شكوى فيه - ونقوم للعمل الصالح، ففيه نفع للناس.. ودفء ومشاركة.. وفيه عزاء كبير.

نتصاعد بالحب لتتسع دائرته للناس أجمعين..

نغرس بذرة.. نعلم طفلا.. ننهض بواجب مساعدة ومعونة..

يعود الصبر نبيلا وجميلا

وتأتينا البشرى دائمًا.. يمدنا بمعجزة الشروق.. وبداية ساطعة كل حين..

ووعد بالنصر والعزة والفوز المبين.

الفرحة لا تخبو فى القلوب المؤمنة أبدًا.

ومن منا لا يخفق قلبه لقطرة ندى تعانق بتلات زهرة واعدة..

من لا ينشرح صدره أمام كلمة طيبة.. رؤيا صادقة.. لمسة دفء ومودة.. بسمة وليد لا ينطفىء شعاع النور الداخلى.. يظل يتصاعد من الأعماق، مع الالتزام بالعمل الصالح، والاهتمام بالآخرين.. والسبق إلى الخيرات.

حقًا يومًا ما يرحل الأحباء..

ولكن يبقى الحب.. ويبقى السعى والطريق.. وموعد باللقاء بهيج.

تعلق نظر الصغيرة بى..

أعرف ما يؤرقها.. ويؤجج الصمت لديها.. حرقة السؤال..

قلت أعيد التلاوة عسى أن نجد مخرجًا لما يضنيها..

﴿ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون. ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين﴾.

سرى فى الغرفة روح جديد.. صار الهواء أرق وأنقى.. نظم إلهى اهتزت له الجدران - نعتصم بالصبر الجميل - ولنا البشرى- أضاء وجه الصبية.. تواصل بداخلها العزف المقدس.. تصاعد النور الداخلى الكامن لديها - فى مرحلة النقاء والبراءة والوسع -

قالت فجأة - وكأنها تتخفف من حملها -

- كل ما يأتى من عند الله فهو خير؟

هززت راسى أن نعم - وقبل أن أفتح فمى لأزيد -

قالت : حتى الموت ؟

- الموت قدر بيننا..

سنة الله فى خلقه.. نولد.. ونموت.. ثم نبعث من جديد

- الله الذى خلق الموت والحياة ليبلونا أينا أحسن عملا - إن هى إلا رحلة كتبها الله لنا.. منه تبدأ وإليه تعود وأمامنا حرية فسيحة ما بين البدء والرجوع.

وهبنا هداية العقل والدين..

وأمدنا بمنهج العمل الصالح.. والعيش النبيل..

رحل عزيز علينا - وإنا لله وإنا إليه راجعون -

ويبقى وعد اللقاء ممتدًا.. وموعد النعيم قائمًا.. جاء موعده.

- والله لا يؤخر نفسًا إذا جاء أجلها -

ومنذ البدء رحل الأحبة والشهداء والمجاهدون..

- وبنفسى أنت يارسول الله..

وشجرة الإنسانية يانعة ومورقة بإذن ربها -

يستوى من بينها أئمة وعلماء.. ثوار ومصلحون.. ونساء صابرات.. ويبقى دائمًا الطريق.. ومحبة فى الله.. وجهاد فى سبيله.

فوزية مهران

لو كان البحر

البحر يمذ بى.

● يعلو رغوه.. تخب خيوله البيضـاء وتسـتبق بلـغ الـوجد - قاموس البحر - لدى.. وانسكب إلى الأعماق واجتاحنى الشوق..

فيض من الذكريات.. والرؤى الجميلة..

يتراءى لى وجهه بين الأمواج.. تقيًا.. نقيًـا.. رائقًـا.. يفيض الدمع من عيني.. أتشبث «بحـاجز الصـبر».. ألتمس الأنس بـالله.. أتلو آيات من الكتاب، تأتيني كلمات الله رابية..

موحية.. تبرد الجوف وتربط على القلب وتتنزل بردًا وسلامًا..

فى عالم يموج بـالمأساة.. يفيض بـالحزن.. ينـذر بـالانفجار.. ويصخب بالعراك.. لا نركن أبـدًا إلى الفـرار.. نعمـل على تثبيـت القلوب، والأقدام نتشبث بـكلمات الله.. نسـتعين بهـا.. نغـوص داخلها.. نستلهم نهجًا ومخرجًا. وهى - من قبل ومن بعد - قـائمة باقية.. تهيب بالمجاهدين أن يتقدموا.. ولجنود الحق أن يسيروا.. أن يطلعوا..

- وأن لو استقاموا على الطريق ستكون الغلبة لهم والعزة..

ومهما يكن الأمر لا يأفل الأمل أبدًا.. ولا يفقد الجهاد أو الصمود فاعليته أردد ما يحضرنى من الذكر..

أتلو كلمات مبينة.. ومبصرة.. أقرأ..

وجاءتنى الآية بالبشرى.

﴿قل لو كان البحر مدادًا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى﴾

فى البدء كانت كلمات الله هى مفاتيح العلم والحكمة والمعرفة.

كلمات عظيمة الجدة.. دائمة النضرة.. ريانة العطاء.. مورقة ومثمرة ولا تفرغ أبدًا.

ولو أن ما فى الأرض جميعًا من شجر أقلام - والبحر يمده من بعده سبعة أبحر - وكل مسطحات الماء مداد.. ما نفدت كلمات الله.

أردت النفاذ فى معني - لا تنفد أبدا.

أى أنها محيطة بكل شيء - وعلمه يسع كل شيء - تهب علمًا وحكمًا ودفئًا

هى جوهر العلم.. وإحاطة العليم.. ووسع العلام.. وهى لذلك لا تنفد أبدًا.

أتتنى فكرة ملهمة.

كما جاءتنى الآية بالبشرى.

-ذلك أننا كلما نعيد التلاوة نكتشف معنى جديدًا.. وتتجسد لنا رؤية «طازجة» معاصرة.

نتبين للموقف بعدًا آخر.. وعمقًا أكبر.. وتبرق لحظة لم نكشفها من قبل. وعيت معنى أن تكون لكل زمان ومكان.

كلمات نتلوها فتبحر بنا إلى آفاق فسيحة.. ومدن بعيدة.. وأقوام غابرة.. وتفعل وتصور كلما أعدنا التلاوة من جديد.

وهى بذلك لا تنفد أبدًا.

تقطر فى النفس عذوبة.. وتمدك بنور الهداية.. وتجذب إلى سواء السبيل.

وفى كل العصور تومض برؤى مستقبلية مبهرة.. وعلى مختلف الأقوام والأزمان والقرى..

نقرأ.. وفى كل مرة نكتشف معنى لم نلتفت إليه من قبل.. ويبرق خاطر لم نكن نلحظه.. ويبهرنا بيان غاب عنا إعجازه فى قراءة سابقة.

ويتبدى الإيقاع موحيًا.. ومؤشرًا متصلا.. ولا ينفد الإيحاء أبدًا.

كلمات مصورة ومجسدة.. نابضة بالحركة.. وبالحياة زاخرة، وتليق بكل العصور.

- علم بها آدم الأسماء كلها - مفردات حب ومودة ومشاركة ترى بها نفسك فردًا فائقًا.. وجمعًا متراصًا متآخيًا.

كلمات تهب بسطة فى العلم والعقل، وتجعل النفوس تشرق بنور

ربها رباطًا للمحبة والقربى.. تجعل لنا ودًا وحكمًا.

إشعاع دفء وسط دياجير العتمة وظلمة القسوة.. وحدة الصراع كلمات باقية.. عاملة.. قديمة.. جديدة.. مفعولة وفاعلة.. تجده من حولك ومن بين يديك، شاهدة وحاضرة وواعدة.

«هؤلاء الكلمات» - كما سماها رسول الله.. وأشار إليها بإشارة «العقلاء» لأنها من عند الله.. وهى عين الحكمة واليقين - وتنزلت تبيانًا لكل شيء.

فى البحر يرينا الله من آياته الكبرى..

بصائر لنهتدى.

يأخذنا البحر بقوة.. يشحذ منا الفكر.. ويوقظ قوى التأمل لدينا.. يلمس مياهنا الجوفية العميقة.. يجعلها تهتز وتموج بالحركة.. فى البحر تغمرنا كلمات الله.. وتتجلى قدرته.. وتجيئنا آيات بينة.. وضرب الله المثل فى كتابه بالبحر دائمًا.. فى مواضع كثيرة ومتعددة.. عند اشتداد الكرب.. والدعاء الحار بالنجاة. والجزع من الغرق.. بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج.. وريح قاصف.. ثم يحملنا على ذات ألواح ودسر.. لنبتغى من فضله. ونأكل لحمًا طريًا.. ونستخرج حلية غالية.

ويلفتنا إلى بديع صنعه وإعجاز قدرته.

﴿مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخًا﴾. تذكرت

ما الحياة الدنيا إلا برزخ.. الدنيا بحر. والناس مسافرون.

دروب كثيرة.. وهضاب وبقاع خلجان وجزر مهجورة.. وشطآن مزدانة.. وثمة طريقان.

سبيل للعيش الطيب والإقامة النبيلة.. والذود عن كل ما هو حق وعدل، وسبيل للشر والغل وعمل السوء.

لم يتركنا الله الرحيم لهداية العقل والفطرة..

تنزل علينا الكلمات..

وكلمات الله خير زاد.. نفرق بها البحر والطوفان..

بوسعنا نجعلها «رحلة المشتاق»

ألا نشتاق.. إلى العلم.. للمعرفة.. والحكمة ونور اليقين. غاية المشتاق العمل والمجاهدة.. والصبر على الابتلاء والمصابرة.. محاولة التغيير.. واتباع منهج الاستقامة والخير.

السعي وتقديم العون للآخرين محبة الناس وخدمتهم.. من أجل أن يكون للرحلة معنى.. وقيمة.. وحضور حقيق وحياة.

نقول فيها منذ لحظة الوعى الأولى - باسم الله مجريها ومرساها - نجعلها - مدخل صدق ومخرج صدق..

علينا فيها بالمواجهة.. والثبات لا نولى الأدبار أبدًا.. ولا نفر حذر الموت.

فلن نلبث فيها إلا يسيرًا.. ولن نمتع فيها إلا قليلا..

أولى بنا الصلاح والإصلاح.. والتزام جانب الحق.

لا يجب أن نغفل عن ذكر الله.. لاننى عن تسبيحه..

وفيض كلماته - لا ينفد أبدًا - بها نحيا حياة طيبة.. ونحس أداء عملنا.. ونجعلها أسلوب عيشنا.. وتحقق معجزة النجاة لنا..

فى البحر تجد الله حاضرًا - عرشه على الماء - نصنع الفلك بوحيه وبأعينه.. فإذا غشينا الموج.. وتجمعت نذر الخطر.. دعونا الله مخلصين - لا ندعو إلا إياه..

ويمد لنا دائمًا يدًا حانية.. تحملنا فوق الظلمة.. وتفرق بنا الشدة.. وتفرج عنا رياح الغضب.

وتعود تجرى بنا بريح طيبة.. وتجد منا «مقتصد».. وفينا من يجحد بآيات الله - بعد الدعاء.. والاستجابة.

دعوت.

«رب نجنا من قلب الحوت.. وبقطع من الليل مظلمًا.. اللهم اعصمنا من الخوف.. وألا يحاط بنا.. لا تمكن منا.. ولا تجعلهم يصلون إلينا.. وثبت قلوبنا» تذكرت:

حقا وما الحياة الدنيا إلا برزخ.. مرفأ يجرى فيه الاختبار.. ساحل يقوم عليه الابتلاء.. ونتحمل مسئولية الاختيار.

كل إنسان ينتق أدواته.. يتخير وسائله.. يحدد موقفه.. ويتجه شطر غايته.. يرسم لنفسه طرقة السير.. ومسار الإبحار.

يعد الخرائط.. ويستعين بالكتب سبل الهداية ميسرة.. والآيات مفصلة.. والقصص التى تتلى علينا واضحة المغزى والدلالة.. توجد

فرصة للتأمل.. للتبصر.. وإدراك العاقبة.

حقًا - ظهر الفساد فى البر والبحر - واستشرى القتال.. وعربد الشر هائجًا.. ولكنها منذ البداية.. معركة.. صراع.. مشقة وجهاد.. والحياة جديرة أن نحياها.. ونجاهد من أجل أن تكون عادلة.. وستجد وعد الله قائمًا..

البحر يمد بى

تخب الجياد البيض وتعلو.. ساحة السباق والفوز أمامها واعدة أتابع حركة الموج.

تتابع.. تلتقى.. تذوب محبة وشوقًا.

حلقات متصلة.. وميقات تغيب فيه.. تغنى.. تعود تلملم قطراتها تقوم متدافعة.

حركة البحر.. هى نفس حركة الكون.. رقصة الحياة والموت. غاية السعى والتوهج والغناء لدى المحبوب.

حركة البحر.. هى النغمة الأساسية.. والحركة الرئيسية فى الكون، مثلما «يبدأ الخلق ثم يعيده» وهى ذات الحركة، نفس الإيقاع.. ووقع حيويته.. ورجع فعل (كن فيكون).

نجىء.. يشتد عودنا.. نستوى.. نهتدى أو نستكبر.. نكون عاملين أو مفسدين فى الأرض يجيئنا الموت بعد حين.. ويوم الفصل نبعث من جديد.

الدنيا محددة الأجل.. ساعتها محتومة براعتنا أن نجعل الرحلة

جميلة.. مبدعة.. نقيم كلمات الله.. نصوغ بها أنفسنا وحياتنا.. نكون وهى شيئًا واحدًا.

نتبع آية ﴿لو كان البحر﴾.. تبحر بنا إلى غاية الرحلة..

﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا﴾.

وهى ذات الفكرة الرئيسية لحركة الخلق والوجود.. بين أن يبدأ الخلق ثم يعيده العمل الصالح إذن هو الشراع.. وطوق النجاة.. ووعد الفوز المبين.

فى هذه الدورة علينا أن نعمل صالحا..

فترة الزمن المتاح لنا.. إبان الاختبار.. يجرى الابتلاء ليرانا أينا أحسن عملا.. وحتى لا تكون حياتنا عبثًا. وقيامنا بلا جدوى وقيامتنا خزيًا وخسرانًا.

علينا أن ندرك غاية وجودنا.

ونعمة حرية الاختيار..

ذلك أننا بين اختلاف الليل والنهار.. ودوران الأرض.. ودورة الزمن، العمل الصالح هو الزاد.. والهدف ووجه النضال.

الحركة بين جعل الشمس ضياء والقمر نورًا.. وتعلم عدد السنين والحساب تتفجر ذرات حياتنا المعدودة.. وعلينا أن نمسك بها نشحنها بطاقة طيبة.. نستثمرها.. نضيفها لرصيدنا.. نثرى بها أيامنا.

نزيدها جلاء ونورًا.. ونجعلها مشعة ونافعة.

فى الزمن المتاح لنا.. وأيًا كانت شدة الاختبار. وحدة المواقف

وقسوة الطريق.. وفقد الأحبة.. علينا بالسعى والجهاد.. والاتساق مع حركة الكون.

في الدورة اليومية.. وعلى مدار العام. نكون النماء والاشتياق والعطاء. يكون سعينا الخير.. وخطونا الحق.. وموقفنا إقامة العدل.

نعى ونبصر ما تنطق به كلمات الله.

ننصت لصخب البحر.. وصفق الريح.. وعويل الظلم.. وخطو المتعبين ووقع أقدام الجياع - ثقيلى الأحمال - نحاول أن نتدبر المعنى.. نعد للعمل.. نرابط للجهاد.. وأيًا كانت الرحلة شاقة وعسيرة.. يجعل الله لنا نورًا.. ويرينا من آياته - وكلماته لا تنفد أبدًا..

له الأسماء الحسنى

﴿هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى﴾.

أدعوه بها.. أرطب لسانى وجوفى بذكرها.. الأسماء التى ذكرها لنا.. وعلمها آدم منذ البداية كلها.. وأودعها خلقه.

أستعين بها.. أذكرها بكرة وأصيلا.. قيامًا وقعودًا.. أناجيها.. بها أحيا وعليها أقضى.. وأحسن بها نطق وخلق.

أذكرها جهرًا وخفية.. أنطقها تضرعًا وخشية.. أقولها بحب وشوق.. ومع استمرار عملية التذكر والتأمل.. تدبر المعنى واكتشاف مراميها.. اكتشفت عملاً باهرًا..

عندما تصير الأيام صعبة.. والمسيرة عسيرة.. وتتجمع نذر القلق.. نلجأ إلى ذكر الله.. ندعوه بأسمائه الحسنى.. تنزل معانيها علينا بردًا وسلامًا.. ننفذ من قدرتنا المحدودة.. إلى قدرة عالية.. وقوة منيعة.. تذهب عنا الريح العقيم وتنجلى أمامنا سبل السلام.. يصلح الله بالنا ونهدى إلى التفكير المستقيم.

ذكرها الله لنا.. وأكدها.. وختمت بها الآيات.. وكانت

الوقفات المبهرة.. والذرا الفائقة.. لتلفتنا.. وتؤكد لنا المعنى.. وتثبت منا الفؤاد.. وكان ﴿عليمًا حكيمًا﴾، ﴿عليًّا كبيرًا﴾ ﴿عفوًّا غفورًا﴾، وكان ﴿على كل شيء شهيدًا﴾.

تعودت أن ألتصق بها.. أسماء الله الحسنى.. عرفها لنا لنعلم أنه «قريب».«ومجيب»..

تعلمت أن أقترب منها بشوق وحنين.. أدنو بجلال وهيبة.. أتدلى بين نورها.. أركن إلى ظلها الظليل.. ووسع محبتها ورحمتها..

علم الله آدم الأسماء كلها.. منذ البدء.. وميزه بذلك على المخلوقات كلها.. حتى الملائكة المطهرة - لكنها ذات علم محدود، والأسماء هي المسميات.. العلم الحقيق الذي ندرك به المعلومات.. ميزة العقل.. ونعمة الإدراك وحرية الاختيار..

القدرة على التأمل.. والتدبر.. نفحات من روح الله.. والنفحة المقدسة من لدنه وإضفاء علينا من صفاته لنوقن أنه البر.. الكريم.. قيوم يدبر الأمر.. وطوبى لمن جعل الله وجهته.. والعمل الصالح بغيته.. ونفع الناس غايته.. طوبى لمن تواصل مع الله.. وأمسك بحبله المتين وانضم إلى عقده المنظوم.. وجعل ذكره وتسبيحه عبادة وعملا وجهادًا في سبيله.

والله يمن على عباده.. يجعل لهم ودًّا.. وطريقا يستقيمون إليه.. ومعراجًا للصعود والتألق بصفاته وجلاله.

يفتح أمامهم سبل الفرح والبهجة والرجاء..

يقول تعالى : **﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعًا بصيرًا﴾.**

ياسبحان الله فى آية واحدة، يذكر الإنسان : من أى شيء خلقه **﴿من نطفة خلقه فقدره﴾** يذكره بالبداية الضئيلة.. ضآلة النشأة الأولى.. لكنه يرتفع به ليكون له ذات صفاته جل وعلا.. يصل ليكون هو الإنسان : سميعًا بصيرًا..

إذن لا حدود لقدرة الإنسان. إذا صاغ نفسه بالدين.. ونبل العقيدة.. وتمثل لنفسه صفات الكمال والجمال.. وسلك سبل السلام.. وتميز بالعمل الصالح المتقن.. والقول الحسن المنزه عن الهوى.. فإنه يرفع من مستواه حقًا، ومستوى الحياة ذاته ويصل بنفسه إلى آفاق عالية من المجد والحكمة والسعة.

من تجربة صديق لنا.. أنه أصيب فجأة - فى أيام نحسات. وبعد أنباء عامة محزنة - أصيب بانفجار فى المخ.

بعد طول علاج ومعالجة وجد نفسه فى حالة يرثى لها.. نطقه ثقل.. ولسانه تثاقل.. وضاعت منه الكلمات.. وهجرته قدرته على التعبير المميزة.

فى لحظة ومضت حياته كلها أمام عينيه.. شريط سريع الأحداث متتابع اللقطات.. صديقنا كان يؤمن منذ البداية أنه جاء إلى الحياة ليقوم بعمل عظيم.. يؤدى مهمة نبيلة.. لا ليحيا حياة سعيدة أو ناعمة.

وبرغم أن الله حباه بسطة من الرزق وسعة المال والجاه.. إلا انه اختار الطريق الشاق.. وتعود على المصاعب والمتاعب وجولات الفكر الخطرة والمروعة.

ماذا يفعل الآن وقد أخذ الشلل يحيط به.. ويحاصره.. والزمن يمر بطيئًا.. لزجًا متثاقلا.. ممنوع من الحركة.. والقراءة، لا يستطيع مجرد الكلام ولا التفكير خلق مقاتلا.. كانت الأشياء يمكن أن تقدم إليه على صحاف من الذهب لكنه يهوى الاكتشاف والمغامرة.. والسعى وراء التقدم واصطياد الأفكار.. وغزو النظريات الحديثة والفلسفات المتطورة.

كان مؤمنًا فى أعماقه.. يمقت اليأس والاكتئاب ومشاعر الشفقة.

ماذا يفعل فى تلك الوحدة الاجبارية.. والفراغ، الإلزامى وضرورة الخواء والانعزال وتذكر الله.

دعاه بحرقة ومودة.. تبتل إليه بأسمائه الحسنى.. تذكر «القادر» فامتلأ بنور اليقين والثقة..

ذكر «التواب» هدأت نفسه واطمأنت..

«الكبير» له القدرة والقوة وهو أكبر وأعظم..

صار الدعاء والذكر شغله الشاغل.. فشمله الأنس بالله. وغمره نور ومنعه.. برق من بين خواطره اسم «المانع».

سبحان الله.. كيف به المانع وهو «الرحيم».. «العفو».

حاول أن يركز تفكيره.. يعالج تعثر ذهنه.. وتشتتت صور

مخيلته.. صمم على التركيز والتفكير..

«**المانع**» كلمة جامعة.. مانعة يمنع الناس من شرور أنفسهم، قد يمنع عنه صحته فى هذه الفترة وعافيته.. وكان يضج بالحيوية والنشاط والقوة - لعله يتذكر.. يهدأ قليلا ويفكر.. تنسحب مشاغل الدنيا.. ويبقى مع الله.. بدأ التعرف على الأسماء من جديد..

أخذ يطيل التطلع إلى السماء، جاءته الفكرة كالوحى أو «الإلهام».

أسماء الله الحسنى..

تكون بداية زرع الكلمات فى ذهنه من جديد.. تعلمها.. نطقها.. تأمل معناها.. أحس أن نبضات الفكر أخذت تعمل.. ومركز الذاكرة ينشط وتتداعى المعانى والكلمات يقول: كأنما كان عقلى صفحة بيضاء ملساء، بدأت عليها النقش من جديد وبأحرف من نور.

أهتف بالاسم.. وأظل أكرره وترطب لسانى بالذكر.. بعد عسر النطق أصبحت يسيرة الكلمات.. وأحسست بفرح عارم.. وخفة كنت أجوب أرجاء الدنيا والسماوات السبع وأفق النور.. ولا أشعر بهمود أو ثقل.. وبدأت مرحلة جديدة من التدريب.

أتأمل المعنى.. وأتدبر أغواره، وأطلق الخيال والتصور.

«**المتين**» أى شديد القوة.. أعلى مراحل القوة والقدرة. الشدة والصلابة.. تتداعى معها كلمة «حبل» نعم.. حبل الله

المتين. عندما نتعلق به نزداد قوة وصلابة وقدرة على الاحتمال.
نثرى قدرتنا.. نضاعفها.. ترتفع بها لتكون مستنيرة بقوة الله وعزته
تمت مرحلة غرس الكلمات. جعلها الله «بصائر».
بدأت صفحة الذهن تبرق بالمعانى.. بالمسميات المتصلة.. بمدد من السماء والإلهام.
وكان الشفاء..
إنه الطريق الحقيق للتقدم.. للارتقاء..
نسلم الوجه إلى الله.. نرتق سبل السلام. نسعى تجاه أسمائه الحسنى وصفاته العلية، ذات الجلال والكمال.. حيث تكون لنا العزة والمنعة والقوة.

الميزان

﴿الرحمن﴾

تلك هى النغمة الأساسية فى قصيد الكون والخلود..

وحنانًا من لدنه ورحمة.. وبذكره تطمئن القلوب..

تشف الكلمة حتى لتحلق بنا فى الآفاق بين قمم النور..

حيث العلو والارتقاء.. العزة والسمو. والشوق الجميل..

الرحمن سبحانه كتب على نفسه الرحمة.. وسعت رحمته كل شىء..

وتأتى بعدها الآيات متتابعة.. متسقة.. مفعمة بالحب..

مترعة بالود الرحيم.

﴿علم القرآن. خلق الإنسان. علمه البيان﴾

عزف سماوى فريد

متتاليات منظومة نورانية

ثلاث جمل موسيقية.. تكون كل منها نغمة مزدوجة.. تتصاعد

بنا الى الأفق الأعلى.. تعود وتنساب إلى عمق الإنسان قطرة قطرة.. تبلغ «قاموس البحر» لديه.. تحرك مياهه الداخلية العميقة.. تتدفق فى جوفه وتتصل بنبع النور..

ينتشر أريج العزف المقدس.. تتجلى حركته.. تستبق إلى الخيرات.. تتبدى آلاء الله.

يرينا آياته فى الأنفس والآفاق.

بشرى تعليم القرآن تستبق مع خلق الإنسان.

وكأنها «ماهيته» مقدمة على وجوده.. حكمة الخلق فيه.. وغاية صنعه وعمله وجهاده. من آيات رحمته أنه علم القرآن..

﴿تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾

القرآن.. القراءة الواعية المستنيرة فى صفحة الوجود والخلق.. التأمل والتدبر لأحوال الناس والكائنات..

الاستدلال والعظة.. قياس المواقف والأحداث.. استلهام السلوك القويم.. القدرة على ضبط ومجاهدة النفس..

القرآن.. منهج حياة.. أسلوب للعيش النبيل.. ثراء للحياة الدنيا والآخرة.. خلق عظيم.. سلام مع النفس وجماعة المتقين.

وكما يقول الرسول الكريم: «القرآن لا تنقضي معجزاته أبدًا.. ولا يخلق على كثرة الرد».. أى لا يبلى جديده.. ولا يتوقف كشف الحقائق المبهرة فيه.. واكتشاف المعانى الواسعة الموحية لديه.. على كثرة تردد الأنظار إليه والتقاء العقول به.. وعلى امتداد العصور.

وطوبى لمن يكون أسلوب القرآن.. ويسعى ليصبح والقرآن شيئًا واحدًا. عمله وخلقه.. وحكم القرآن.. هو بذلك يصل إلى قمة تفوقه الإنسانى.. وتألقه النفسى والاجتماعى.

وتتفتح قواه الكامنة.. والطاقات المبدعة لديه.

﴿علمه البيان﴾ خلقه فى أحسن تقويم.. فضله وميزه على سائر المخلوقات.. جعله ناطقًا.. علمه الأسماء.. دربه على التعبير والإفصاح عما بداخله.. زوده بكل قوى التمييز والاختيار.. يبين بالكلمات ما يريد..

- وكلمات الله لا تنفد أبدًا - واللغة هى وعاء الفكر.. واعتياد اللغة يؤثر فى الوجدان.. وحسن استخدام اللغة تدريب على التفكير المنظم والمشاركة، والانتقال بعدها من مرحلة الفكر الى العمل.

جعله الله يفكر ويعقل ويوازن بين الأشياء ويصل إلى المعرفة والحقيقة. نصير بالقرآن أكثر حكمة وعلمًا.. يدلنا على الطريق المستقيم.. وأسس الحياة الطيبة.. يؤتينا به الله خيرًا كثيرًا.. نثرى تجربتنا.. ونزيد من قدرتنا وقوتنا.. تزداد حياتنا دفئًا وجمالا..

فى نور القرآن والعبرة المستفادة منه.. ومن عاقبة المكذبين والتجارب المتباينة لخلق أقدمين.. وأقوام غابرين نستطيع ان نتعلم ونبصر ونتزود بالتقوى.

وعلى ضوء الدراسة المستفيضة المتأنية لآيات مبينة.. مفصلة تقص عن البدء وتمتد حتى مواقفنا المعاصرة.. وعلى نهج الأنبياء

والصالحين.. واتباع جنود الحق والمصلحين نستطيع أن نقيم بناء حياتنا.. وصياغة خلقنا.. وتدريب ارادتنا لاختيار الموقف الحق والجدير بإنسانيتنا.. والعمل على نفع الناس.

﴿والسماء رفعها ووضع الميزان﴾

سبحانه جعل رفع السماء كرفع الميزان..

- والسماء بناء - وبحنو بالغ عطف عليها إقامة الميزان..

هذه النغمة المزدوجة والتتابع المعجز - مثل كفتى ميزان - تصل بنا حتما إلى ضرورة العدل الذى به تمام الاستقامة.. وحتمية التوازن.

لنتأمل التناغم والتوافق الجميل بين السماء رفعها ووضع الميزان.

فيها يقرأ الإنسان قدرة الله.. يقيمها الله على ميزان دقيق تجرى عليه أمورها وتتألق ببديع صنعها. سبحانه يدبر الأمر.. يفصل الآيات وخلق كل شيء فقدره تقديرًا.

يريد الله لينبئنا بشيء.. يجذب انتباهنا بشدة. ولكى تتجسد أمامنا الصورة.. ويبرز لنا المعنى.. جاء - بواو العطف - ذلك الحرف العذب الموصل للدفء والقربى، وأواصر الارتباط والمودة - فيجمع بين النغمتين على نفس الدرجة من السلم الموسيقى.

نسلم وجهنا إلى السماء.. نتأمل ملكوتا علويًا منظمًا.. السماء مرفوعة بغير عمد زينة للناظرين.. تظلل الناس أجمعين.. ولا تسقط

كسفًا على الكافرين والمستكبرين - وكأنما ميزان هائل - غير مرئي - وتراه قائمًا - وليقوم الناس بالقسط.

دقة حركة النجوم والكواكب.. واختلاف الليل والنهار.. والشمس والقمر - كل فى فلك يسبحون.. ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت أو فطور.

كل شيء بقدر وبحسبان..

دعوة لأن يقيم الناس أمور حياتهم فى ظل هذا الميزان القائم بالعدل.

﴿ قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ﴾

بشرى للمؤمنين أن يكون التزامهم الحق والعدل.. والشهادة على النفس أو الوالدين وذوى القربى.

صورة مجسمة ليكون محور حياتنا العدل.

العلم والمعرفة وإعمال العقل وهداية الدين كلها أدوات إقامة الميزان والوزن بالقسط.

« الحق » علمنا البيان لنبحث وراء الحقائق ونصل إلى اليقين وجوهر الحكمة.. وحكمة الخلق والحياة..

القراءة والتأمل عملية تدريب متصل.. ورحلة عملية نصل خلالها إلى إدراك ضرورة أن يشيع العدل.

وهكذا كلما أمعنا النظر جيدًا وتدبرنا الأمر.. نرقى إلى عملية

تطوير مستمرة نصل فيها إلى ذروة التنوير فى حياتنا.

يقوى لدينا الاعتقاد بأن الله صنعنا على عينه.. نثق بإمكان أن نصبح من أصفيائه وأوليائه.. يثبتنا بالقول الثابت.. نقبل على الحياة ونستمتع بالأعمال الطيبة.. ويجعل لنا نورًا وودًا.

وما أجمل أن تكون أيامنا «رحلة المشتاق».. زادنا التقوى.. ووجهتنا نفع الناس ورضا الرحمن.

خلقنا ليبلونا أينا أحسن عملا - وعلى حسب الوزن الإجمالى للطيبات والعمل الصالح يكون الحساب الختامى.. والمنزلة وحسن المآب.

سبحانه له الأسماء الحسنى.. «العدل» أحد هذه الأسماء.. ندعوه بها.. نقترب منها.. نتسامى لنتصل بها ونحقق وجودنا ويشيع عنا أجمل الصفات.

الرحمن كان بنا حفيًا ورحيمًا.. ميزنا بهبة العقل.. ميزانًا لحركتنا.. وأرسل رسله بالبينات وأنزل معهم - الكتاب والميزان - وكفل لنا حرية الاختيار.

وكان خاتم الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام.. ومعجزته القرآن.. نتعلم منه البيان والحكمة وحسن الخلق والعمل.

نكون على الصورة التى أرادها لنا الله..

ندرك نعمة التوازن والوسع.. تتسع حولنا دائرة الدفء الإنسانى وإحساس المودة والمشاركة.. والرغبة فى تغيير العالم من حولنا، وجعله

أكثر عدلا ونبلا. القرآن به نعيد صياغة أنفسنا.. وصقل أرواحنا.. إحياء الروابط بيننا والآخرين.. تجديد خلايا المحبة داخلنا، وإعادة الوحدة بيننا والجماعة.

- نعود كفطرتنا الأولى..

العدل هو محور الارتكاز في الكون - إن تحقق يظللنا كما السماء.

والميزان هو النغمة الرئيسية لإيقاع الحياة واستقامتها، ونبل العيش فيها، ومقرر الدرجات يوم الحساب.

وطوبى لمن يفلح ميزانه... ويتعود محاسبة نفسه دائما قبل العرض الكبير. قبل أن يدركه - يوما ثقيلا -

المؤمن حقًا من يلتحم بقضية العدل. تكون وجهته.. وقاعدته.. وركيزة جهاده.. ونجمة الميناء لحله وترحاله.

أن يقيم موازين العدل.. يجعل ذلك همه ومهمته.. رسالته وجهاده ووسيلته إلى رضا الله.

الميزان - هو الحقيقة.. والأمل.. والبيان..

بشارة الاعتدال والحق.. والتوازن بين الانسان والعالم الذى يعيش فيه.

بشرى الاستقامة والعدالة والشعور بالرضا والطمأنينة.

العدل يقيم أمر الناس.. يصلحهم جميعًا. يصلح بالهم وأحوالهم.

النفس البشرية صحتها فى التوازن.. لا تميل مع الهوى.. عدم التمزق بين الأهواء والنزعات.

السلام بين العقل والرغبات.

والمجتمعات يصلحها العدل يقيم شأنها وترتفع بين الأقوام

أمرنا الله ألا نطغى فى الميزان أو نخسره.. ونقيم الوزن بالقسط - ذلك كيل يسير -

فمن ثقلت موازينه بالأعمال الصالحة، يكون له الفوز والنعيم.. والعزة والتقدير .. ومن خفت موازينه، أولئك الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة.

وحتى فى الحياة الدنيا، لم يحققوا الكسب بمعناه الصحيح.. ربما تمتعوا بالثراء والجاه.. مارسوا حياة الترف وسطوة النفوذ..

لكنهم فى هم وقلق وخوف دائم.. وشك فى كل من حولهم - حتى أقرب الناس إليهم - خوفًا من أن ينكشف سترهم، وأساليب الغش عندهم وأحوالهم الحرام. يحيط بهم الخزى والهوان فى الحياة الدنيا..

ربما نجحوا فى جذب الأتباع وأهل النفاق والمنتفعين، لكنهم يفتقدون الاحترام والثقة والحب الحقيقى.. ويتجنبهم أهل النزاهة والاستقامة والكرامة.

سجل عليهم الخسران بالخزى والهوان فى الدنيا.. وفى الآخرة عذاب مقيم.

نبهنا الله سبحانه وتعالى إلى الميزان فى آيات كثيرة.. إشارة إلى الاعتدال المطلوب.. وتأكيد التوسط والاستقامة.. «ربما من هنا جاءت التسمية - أمة وسطا».. لا إفراط ولا تفريط. لا إسراف ولا تقتير.. إنما دقة للموازين والمعايير..

المؤمن حقًّا من ينمى داخله - ميزانه الخاص - جهاز حساس ودقيق. يعطى كل شىء قدره.. ويزن بسرعة فائقة - وقبل أن يرتد إليه طرف - ويقيس بمقياس الدين.. ويحسب بدقة متناهية.. ويقيم المواقف والأفعال فى ضوء أحكام القرآن.. وحدود الله.

وليكن اسمه الضمير.. أو مجلس شورى داخلى.. أو هيئة محلفين.. فقط يستمر على تطوير ذلك المؤشر الحساس داخله.. والذى يسجل له تلقائيًّا أى ميل أو انحراف عن وضع الاستقامة.

﴿فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا﴾

الاستقامة هى عمود العدالة.. مركز الاعتدال.. مؤشر الانضباط.. والطغيان خسران فى الميزان.. ميل شديد وانحدار عن الحكم العدل. خسران الميزان يكون ابتداء من عمليات البيع والشراء والمعاملات، إلى أجهزة الحكم ومجالس القضاء، وأسلوب إدارة شئون الناس.

يأمرنا ديننا بعدم أكل أموالنا بيننا بالباطل -

﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾

الأمر هنا بصيغة الجمع.. للناس والأموال.

الجماعة هى المخاطبة، وهذا دليل على وحدة الأمة وترابط مصالحها، وإشارة إلى أن المال فى الأساس هو ملك للجميع.

لابد من احترام حقوق الغير والحرص عليها والوفاء بها - وكأنها مالنا الخاص - لو أدركت الأمة العربية.. والدول الإسلامية كيف يرتقى شأنها بالإسلام.. وتتعلم أسلوب الحكم من آيات القرآن.. لارتفعت به وتقدمت وصلح حال إنسانها.

أكل مال الغير جريمة يتعدى شرها إلى نفس الآكل والجميع.. وهو جناية على الأمة كلها باعتبار أنها تكون وحدة عضوية. وبالتالى فإن أعمال السلب والاغتصاب والرشوة تدخل كلها فى جريمة الأكل الحرام.. كذلك الغش والسخرة واستغلال النفوذ.. كل يتعدى على من هو أضعف منه حتى تكتمل الدائرة.. وتحاصر الجميع.

وحتى الدعاية المغرضة التى تروج سلعة رديئة أو فاسدة.. أو تزين حكمًا سيئًا.. هى أيضًا خسران للموازين والقيم.

ويأتى تعبير «الأكل» بالنسبة للأموال بليغًا ومعبرًا.. بمثل عملية الشره والجشع والنهم.. أكل أموال اليتيم أو الضعيف أو ابتلاع حقوق الناس عمومًا..

وحرم أن ندلى «بها إلى الحكام، لنأكل فريقًا من الناس.. نأكل حقهم ابتداء من القوت إلى المكانة وسائر حقوق الإنسان.

الطغاة والمستكبرون دائمًا ﴿يبغونها عوجًا﴾
لا يطيقون الميزان - رمزًا أو حقًا -
العدالة تـؤرقهم وتقضى على تـوسعهم وبغيهـم وشراهـة « الأكل » لديهم.

ولعل أخطر أمراض المجتمعـات الحـديثة، هـو الخلل الخـطير فى الموازين فى بنية المجتمع ذاته، واهتزاز القيم فيه.

الأمة فى هذه الحالة تفقد قوام أن تكون أمة حقًا.. ربما تصـبح زحامًا وحشرًا وأناسًا يلتصق وجودهم.. ولكن دون تقارب حقيـق أو مودة ومشاركة بينهم.

تضيق عليهم أنفسهم وتضيق الأرض بهم.. لم تعد أمة متجانسة بل مجرد أفراد متفرقين يعانون من اختـلال الموازيـن، وفقـد الثقـة وانتشار النفعية وحب الذات.

فى حين أن ميزان العدل يصلحهم جميعًا.

إن فى ذلك لآية

دعا شعيب قومه إلى عبادة الله وحده، والوزن بالحق. - لا يريد لهم إلا الخير - قد جاءتهم بينة من ربهم حقًا.. أن يبعث رسولا يقول فى مسائل الكيل والميزان.

ولأن التوحيد فى حد ذاته اعتدال لميزان الناس.

خلق كل شىء فقدره تقديرًا.. لم يخلق شيئًا عبثًا - سبحانه - يقوى الإنسان ويستقيم بعبادة الله.. لا يصبح نهبًا لأرباب متفرقين.. لا يحيا ممزقًا بين آلهة متعددة.. لا يخضع لقوة أو سلطة.. يسلم وجهه لله العلى القدير.

﴿وإلى مدين أخاهم شعيبًا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان﴾

ياسبحان الله بعد أمر التوحيد مباشرة، يأتى النهى عن نقص الكيل والميزان.

الإيمان يقتضى العمل بما جاء به الرسول من عند الله.. والعدل

شريعة الله.. لذا وجب على المؤمن الالتزام بجانب الحق والعدل ابتداء من أبسط مظاهر التعامل اليومى إلى أخطر القضايا والمواقف.

نقص المكيال والميزان وأكل حقوق الناس، يعد خطيئة كبيرة موازية للشرك.

المؤمن حقًّا من يحب للآخرين ما يحب لنفسه ويرضاه.. يستشعر أخوة الإيمان.. أما نقيصة الطمع وحب الذات والرغبة فى استغلال الآخرين، فإنها شر يتهدد الجميع ووباء خطير يدمر كيان المجتمع.

جعل الله لكل نبى آية شاهدة على صدق وصحة دعوته.. علامة واضحة بينة.. معجزة على أن ما جاءهم به هو الحق من عند ربهم.. وجعل من اليسير على الناس إدراكها، إذ هم المقصودون بها.

عصا موسى.. والنار تكون بردًا وسلامًا على إبراهيم.. وصالح عليه السلام بعد دعوة التوحيد أبلغ قومه الآية التى أيده الله بها.

﴿هذه ناقة الله لكم آية﴾ آية بينة أى أنها عظيمة القدر واضحة المعنى قوية الدلالة.. وآية الله فى الناقة ألا يمسها أحد بسوء.

قيل إنه لم تذكر الآية التى جاء بها شعيب عليه السلام إلى قومه.

وأشار - الإمام محمد عبده - «إنه قد يؤخذ إنذاره لأهل مدين أن يصيبهم ما أصاب قوم نوح أو قوم هود وثمود، إذ هم أصروا على

شقاقه وعناده على أنه بينة لصدقه - وقد صدق إنذاره بالفعل..
ولكن لابد أن تكون له آية أخرى دالة على صدقه تقوم بها الحجة عليهم ».

- ولأن صدق الإنذار ووقوع العذاب ينهى الموقف ولا يقيم الحجة - وإن كان يعد آية.. وموعظة لمن يجىء من بعدهم.. وعبرة تثبت إيمانهم.

وبرغم أن الإنذار يدل على أن الله سبحانه أعلمه بخبر الأنبياء السابقين وقصصهم مع شعوبهم.. أعتقد أن آية شعيب هى الميزان. الميزان كرمز.. وتصور.. وفعل هو البينة التى أتاهم بها شعيب من عند عليم خبير.

وبعد أن فسدت حياتهم واختلت موازين عيشهم..

كانت خطيئة أهل مدين الغش فى الكيل وخسران الميزان وبخس الناس أشياءهم.

هضم حقوق الضعفاء بينهم.. والفساد فى الأرض.. والأمم تعاقب على ذنوبها فى الدنيا والآخرة.. يكون عقابها فى الدنيا أثرًا للسيئة التى يأتونها، فتفسد الأخلاق وتباع الذمم.. وتتمزق الروابط والصلات وتذهب قوتها هباءً.. وضل سعيهم، وقد يترتب على الفساد والاختلاف أن تتسلط أمة أخرى عليها فتسلبها أمنها وثرواتها وحرية أهلها تستبد بهم وتذلهم، المأساة تبدأ دائمًا من الخلاف والفرقة وشدة الحاجة، وعدم إقامة شريعة العدل، وذل السؤال، ثم التبعية

الغذائية والمالية.. تلك هى اللعنة التى أصر أهل مدين على عدم الرجوع عنها، واستمروا فى طغيانهم.. - وما كان الله معذبهم قبل أن يبعث رسولاً - فلما كبروا ولم يسمعوا.. ﴿أخذتهم الرجفة﴾ تمامًا مثل قوم صالح عندما كذبوه فعقروا الناقة. وأصبحوا عبرة على مر الزمان والمدائن والأقوام.

كان لابد لهم من رسول يذكرهم بميزان العدل الإلهى..

بتصور الميزان وماذا تفعل إقامته فى حياتهم.. بالعودة إلى التوحيد، وهو أصل استقامة الأشياء كلها - وهو خير لهم -

ولأن البينة هى كل ما يتبين به الحق.. وجعلها عبرة وموعظة فهى تشمل المعجزات الكونية والأدلة العقلية.

والميزان برهان عقلى قائم.. لو تدبروا أمرهم.. وتفكروا وتأملوا - ونظروا كيف كان عاقبة المجرمين - لعرفوا العلاج لحالهم المتردى.. ووجدوا أن خلاصهم فى العدل وإقامة الميزان الحق.

الإشارة إذن إلى ضرورة اعتدال الميزان.. والعودة إلى الإصلاح وإقامة العدل بين الناس.

وهو هدف التنزيل والعبادات والرسل ﴿إن فى ذلك لآية﴾

حذر «الملأ الأعلى» من اتباع دعوة شعيب.. وترك معتقدات الآباء والأجداد - ودائمًا يفعلون وبنفس الحجة يقولون ويكذبون على أنفسهم وأهليهم -

قالوا إن ذلك ضد حرية التصرف فى أموالهم، وتقييد لحدود الكسب والثراء لهم.

قوم شعيب كانوا من المطففين ﴿**إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون**﴾ - وتجد أكثرهم «بخاسين» هم يرونه فيهم ضعيفًا.. ربما يبغى من وراء دعوته مكان الصدارة والرياسة بينهم - لذلك قعدوا له بكل صراط.. وهددوه بالرجم لو استمر فى دعوته وجذب العامة إليه وجعلهم يتمردون على سادتهم.

قال لهم إنما يبغى الإصلاح - وإن أجره إلا على الله -

لقد غيب عنهم جشعهم ورغبتهم فى الكسب السريع الرؤية الصحيحة.. وحجب عنهم المنطق السليم للكسب على المدى البعيد.

حسبوا أنهم يخسرون إذا اعتدلت الموازين.. يرون من حقهم حرية التصرف فى أموالهم، وتحديد مقدار الكسب الذى يريدون. يظنونها مهارة عندما يخسرون الميزان ويأخذون أكثر من حقهم.

غابت عنهم بديهية بسيطة.. وحقيقة واضحة.. أن المال الخاص جزء من المال العام، يجب أن يوجه إلى ما فيه مصلحة ونفع الجميع.

والحرية لا تعنى التزوير والغش، والمبالغة فى زيادة المكسب والأسعار.. إن هى إلا حركة شريرة.. ودائرة سوء يمتد أثرها إلى الجميع وتختل بذلك كل موازين المجتمع وقيمه.

لو شاعت تلك الآفة الاجتماعية الخطيرة، لعادت دورة المال إليهم لتسلبهم ما أخذوه فى وجه آخر من وجوه التعامل بين الناس.

وكأننا أمام جماعة تهدم نفسها من الداخل، وتقوض دعائم بنيانها واستقرارها، وكل يتسابق إلى أعمال النهب والسلب وإتقان فنون المساومة والابتزاز والخداع، وفوضى الموازين والمعايير.

مجتمع هذا شأنه، لا يلبث أن ينهار.. وتتمزق فيه أواصر القربى والمودة، وينقلب على نفسه.. تدمره رياح الحقد، ولا يصح أى شىء فيه أو يستقيم. يصبح الفرد عدوا داخليا يتربص بإخوانه ومواطنيه كما يتهددهم أى عدو خارجى يريد أن يستثمر موارد البلاد وجهود أبنائها.

استمر شعيب فى مواجهة قومه..

وياقوم **﴿قد جاءتكم بينة من ربكم﴾** إنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط. يخشى أن يصيبهم ما أصاب قوم نوح.. أو أهل هود وصالح.. وما قوم لوط ببعيد..

يدعوهم ليستغفروا لذنوبهم يريدهم أن يتوبوا.. أن كل شىء بالحق والعدل.. أن يبتعدوا عن الفساد والضلال.. يحذرهم:

﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾:

يجب وزن كل شىء بالقسطاس المستقيم.. أى ميل أو انحراف يعمق الفساد والضرر. التوجه إلى الله يستدعى الاستقامة والأمانة والنزاهة وحب الخيرات..

البخس معناه نقص قيمة الشيء الحقيقية.

استغلال الظروف للتهوين من الشأن والتقليل من الثمن.

خسران الموازين والبخس يأتى فى عمليات البيع والشراء، وفى تقييم الأعمال والقدرات والمواهب.

بشارة شعيب لقومه. عن الله تعالى - أن لو اعتدلت الموازين يعتدل كيان المجتمع بأسره.. وبذلك تكون قيم الحق والعدل والحرية ضرورة حيوية.. ليست ترفًا ولا منحة من أحد.. إنما هى الأساس فى فطرة الإنسان والركيزة لبناء الأفراد والشعوب.

وهى أيات بينات من ربهم.. بشرى وهدى ورحمة من لدنه إذ اختاروا لأنفسهم طريق الخير والإصلاح.

البخس - أعم من النقص وتشمل كل أوجه النشاط الإنسانى.

- تلك الآفة اللعينة - منتشرة بصورة مروعة فى أيامنا تلك.

يأتونها على أعين الناس.. جهرة.. ويباهون بها بلا أدنى حياء أو خجل. أغلب التجار يفعلون والشطار من ذوى الثروات والنفوذ.. تجد أكثرهم «بخاسين» عندما تقدم بضاعتك أو إنتاج عمل فنى.. أو رأى رشيد. فى مجال العلم والفن، يتصدر القوم أحيانًا من خفت موازينهم من الحكمة والموهبة، وحسن الأداء، وإرادة الإصلاح..

لا تبخسوا الناس أشياءهم.

جاء النهى بصيغة الجمع - لأن البخس يجىء بين الأفراد وعلى مستوى الجماعة.. كذلك هضم الشعب حقوقه وحريته بتسلط فئة من

الناس وطغيان المترفين. وبخس الناس أقدارهم يخل بالتوازن فى المجتمع كله. وما فقدت أمة ميزان العدل.. الذى هو أساس الاستقامة والحق إلا حل بها التدهور والفرقة والانقسام، وهان أمرها على الناس.

لذلك أنزل الله ﴿**الكتاب بالحق والميزان**﴾ ليثبت الذين آمنوا، وهدى وبشرى للمؤمنين.

الوزن يومئذ الحق

الكلمات تنساب إلى حسى وسمعى.

موجات أثيرية تتدفق إلى الوجدان.. يخفق لإيقاعها القلب..

يسرى الشعاع إلى كل خلايا الذهن.. تتحرك كوامن النفس..

يومض نور داخلى.. تتصاعد موسيقى باطنية.. تتسع رغبة العلم.. وتتفتح طاقة الشوق الجميل.

مقدمة بسيطة.. تقود إلى نتيجة منطقية.

فأما من ثقلت موازينه. فهو فى عيشة راضية. وأما من خفت موازينه. فأمه هاوية﴾.

وضعت الآيات متقابلة هكذا.. موزونة..

العمل فى كفة وقيمة الوزن فى الكفة الأخرى..

فريق فى الجنة.. وفريق فى النار..

العمل بين.. والنتيجة ملائمة.. من نفس نوع العمل.. إن خيرًا فخير.. وإن شرًّا فالعاقبة وخيمة. هكذا يقام الوزن بالحق،

وأمامك حرية العمل.. وفرص الاختيار وموارد المعونة.. وينابيع الحكمة وآيات الاستدلال والعبرة.

فاختر لنفسك ما شئت.. وادخر لميزانك ما ترى.

من تثقل موازينه فهو فى عيشة راضية.. ومن يخسر ميزانه وترجح كفة السيئات لديه أمه هاوية.

لفتنى التعبير بشدة.. أذهلنى.. أدار رأسى، كما لو كنت أسمعه للمرة الأولى.. لم أتوقف من قبل لديه.. مئات من الصور والمشاهد اتسعت فى مخيلتى.. رجفة من القلق والوجل هوت فى قلبى.. رهبة وخشية.. يال العبارة الموجزة - المحرقة - أمه هاوية!.

فى رحلة البحث عن المعنى.. وتقصى الكلمات.. أبحرت بين خبايا اللغة.. ورنين المفردات.. وجرس الحروف واستلهام موسيقاها الداخلية اتضحت لى رؤيا أرحب. أمه.. أى مكانه ومقره.. مأواه ومنزله..

« الهاوية ».. المكان الذى أعد له.. نزله ونتيجة لسوء عمله واستكباره وعدم إعمال العقل.

بهرنى المعنى حقًا.. سبحان الله الخالق المصور.. يتجلى جوهر الكلمة بذاتها.. تعطى مدلولا أكبر لعمق المعنى فيها.. تتسع حتى لتجسد مشهدًا بأكمله.. تكتمل لترسم خاتمة لقصة حياة بأسرها.

تتجلى الكلمة حتى لتصدر فحواها الداخلى.. حركتها الباطنية.. وتبث صدى نواة خلقها وذروة أدائها..

اختار - سبحانه - لفظ أمه.. دون بقية المترادفات كلها..
هتفت فجأة.. يا الله.. أى أن الإنسان اختار الرحم الذى يضمه فى النهاية.. يعود بعد رحلة الخلق الأولى ليستقر فى «رحم» لا خروج منها.. لا بعث ولا ولادة.. إلا أن يشاء الله.

الإنسان وهو خلق ببطن الغيب أعد الله له سكنًا ودفئًا. كنًّا ومكمنا فى باطن أمه ليعبر منها إلى الحياة الدنيا..

يكبر ويصير مسئولا عن أعماله.. يختار لنفسه الرحم «الثانية».. يوجدها بأعماله يحددها بمواقفه وحركة أدائه.. يختار بمحض إرادته نزله.. ومأواه..

مساكن طيبة.. غرف تجرى من تحتها الأنهار.. روضة فى الجنة.. أو تكون «النار موعده» حيث التحم الزمان بالمكان.. كونا وحدة.. «رحم» يطبق عليه بالعذاب.

- والوزن يومئذ الحق -

به تحق الأمور وتعرف كل الحقائق.. ويكشف المستور.. ويذاع أمر الإنسان..

- يجد ما عمله حاضرًا -

يوم تشرق وجوه المحسنين.. ويوم الخزى والحسرة للضالين الطاغين.

الجزاء على حسب العمل ه وكفى بالله حسيبًا - والعدل قائم والميزان.. ولا يظلم ربك أحدًا - ولو كان مثقال حبة من خردل.

قد أفلح الذين آمنوا وعملوا الطيبات.. وخاب الذين لم يعملو حسابًا لهذا اليوم، ولم يتزينوا للعرض الكبير.. خسروا أنفسهم. ولا يقام لهم يوم القيامة وزن - كانت حرية الاختيار مكفولة لهم.. ويتحلون بنعمة العقل.. وآيات الله تجيئهم مبصرة وتحيط بهم من كل جانب.. والرسل والكتب ومع ذلك أغلقوا قلوبهم وعقولهم وكتبوا على أنفسهم الخسران المبين. ذلك بأنهم استمروا على الكفر والعصيان وأصروا على إغفال آيات ربهم حتى آخر عمرهم.

ويأتى تصويرهم ﴿كانوا بآياتنا يظلمون﴾ والتعبير عن ذلك يعطى انطباعًا بأنها صيغة تمتد حتى المستقبل.. منذ ذلك الزمن السحيق.. من موقف عنادهم وصلفهم حتى المشهد المروع فى النهاية.. عندما تتم عملية الميزان وتعرف النتيجة ويكونون من الأخسرين.

وكثيرا ما تأتى صيغة الماضى أو الحاضر لتعبر عن فعل يمتد حتى مشارف المستقبل والأجل المسمى.. وذلك لتأكيد المعنى وإبراز صورة الحدث واتساع نتائجه.. ولأنه دائمًا ومنذ البدء تجد قومًا «يستحبون» الحياة الدنيا على الآخرة.. «ويصدون» عن سبيل الله.. «ويبغونها عوجًا».

يقول العرب القدماء - استقام ميزان النهار - أى انتصف اليوم.. والنهار فى أوج ضوئه.. ونضجه.. إبصاره وحدته وسعيه.. - كانوا علماء حكماء - جاء النهار مبصرًا.. واضحًا جليًا..

ونزل عليهم القرآن معجزة فى البيان والحكمة.. هدى وبشرى

للمؤمنين. تتراءى لنا صورة «الميزان» من جديد.

قدرة فائقة لرفع السماء.. واتساق مجريات أمورها.. واختلاف الليل والميزان.. ووضع الميزان.

طوفت بين حنايا التاريخ.. وقصص الأنبياء.. وسير الأقوام الغابرين.. وأحداث عالم معاصر يموج بالأخطار وتضطرب فيه القيم والموازين.. وتغلب عليه أعمال الجور والعنف والطغيان..

لم نجد سوى العدل يصلح الجميع.

إحياء الدين.. وإقامة الموازين.. صحة الوزن وعدم البخس.. وبذلك تصح الأمور وتستقيم.

ما لكم كيف تحكمون

عجيب أمر أمة ينطق «كتابها» بالآيات البينات وبالحق.. ومع ذلك يتحيرون.. ولا يتبينون الرشد من الغى.. وفى هوة الخلاف يقعون.

البعض يترك نفسه هكذا - معلقا فى العراء - بلا يقين أو أمل.. غافلين عن غاية الوجود الإنسانى..

«غلف قلوبهم» كأنهم وجدوا بلا سمع ولا بصر ولا أفئدة.

إن أعظم هبة للإنسان - العقل.

وهو إن لم يقد صاحبه إلى الحكمة والهداية.. وإلى مجالات الرؤية الصحيحة وآفاق الاستدلال المنطق فهو مجرد «موتور» يعجز عن الحركة الصحيحة.. أو يركن للصدأ وقد يصل إلى مرحلة «الاحتراق الداخلى».. والتدمير الذاتى.. يوجد البعض ويرحل دون أن يكتشف متعة الفكر.. وحلاوة التفكير والارتقاء إلى حسن الإدراك.. ونعمة التدبر والتأمل.

وقد تعمل منهم العقول بحدة وذكاء.. لكنهم يخضعونها لأهواء

النفس.. أو استغلال الآخرين والاستعلاء فى الأرض.

أحيانًا يكون الدليل واضحًا.. وبين أيديهم يسطع البرهان لكنهم يلوون رءوسهم.. ويجاهرون بغير الحق.. ويستكبرون.. يرفضون تحكيم العقل.. أو إعطاء أنفسهم فرصة الفهم والاقتناع.. والوقوف على الحقيقة.

مادام الأمر لا يوافق أهواءهم.. فهو مرفوض حتى ولو كان جلى المنطق.. واضح الحجة.. بالغ البيان.

ويناقشهم (القرآن) - ليعلمنا من فضله ويجعلنا نقتبس بعض نوره.

﴿ **مالكم كيف تحكمون** ﴾ ما بال المعاندين والمكذبين.. كيف يحكمون على الأشياء.. وطريقتهم فى الوصول إلى استنتاج أو قناعة..

لم يكن أسلوبهم دائمًا التزييف.. والتبرير.. وسائر العمليات المعقدة ليلبسوا الباطل ثوب الحق..

بمنطق رصين.. وصيغة تؤثر فى الوجدان وتنير العقل وتجعل للناس «بصائر» يناقش «القرآن» المكذبين..

الذين ينكرون وجود الله.. أو ينفلتون من اتباع أحكامه. ولا يرون فى إقامة الحق والعدل، «ضرورة حتمية» لصلاح أحوال البشر والمجتمعات.

﴿**ما لكم كيف تحكمون. أم لكم كتاب فيه تدرسون**﴾.

هل وصلوا إلى كتاب جامع يتحدث عن حقائق الكون والنفس الإنسانية - ولا يكاد يغادر صغيرة ولا كبيرة - وأحكامه الصحيحة التي يعيشون بها حياة طيبة.. نبيلة يشعرون فيها بالعزة والاستقامة والسلام مع النفس كتاب معجز لا اختلاف فيه.. ويقع ما يتنبأ به.. ويثبت التاريخ ومسيرته صدق أحكامه، ووضوح استنباط وقائعه وأحداثه.. ويتلح لكل زمان علم وحقائق علمية لم نتبينها من قبل ويتيحها الله لنا بقدر وفي موعد معلوم.

مساكن ترضونها

تراءت أمامى آيات بينات.. قد جعلها ربى حقًا.. هدى وشفاء لما فى الصدور.. وبشرى..

﴿مائدة من السماء تكون لنا عيدا﴾

نهر يتدفق بكلمات الله فيجعل البيت طهورًا.. ويحيل الأشياء جميعا إلى نضرة وإلى بهجة.. ويدخلنا ظلا ظليلا..

يصقل الجدران.. ويسرى بالنور بين الحجرات.. فتشع أمنا وسكينة.. ويفيض القلب طمأنينة.

ما أجمل أن يعيش الإنسان فى بيت يقيم فيه الدين. ويرطب أيامه بذكر الله.. والأنس به.. والتمتع بقربه.. والاشتغال بطاعته. والله مجيب وقريب.. هنا يصير البيت «سكنًا».. ومنزلا فائقًا.. ومقامًا محمودًا ووجدت ما أفكر فيه.. حاضرًا.. قد جعله ربى حقًا.. سطعت فى وجدانى (الآية)..

﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة﴾.

الله سبحانه وتعالى يعلم كم هى شاقة رحلة الحياة وعسيرة.. تتطلب منا الصبر والجهاد.. وتنمية ملكة الثبات والاحتمال. تهون برفقة طيبة وعش صغير هادئ.. لذلك خلقنا «أزواجا» وجعل لنا من بيوتنا.. «سكنًا» حتى من الجبال الواعرة الصلبة.. جعل لنا فيها «أكنانًا».. حضنا دافئًا.. «كن» يفيض بالخيرات والخصب وأسباب النماء.

وإذا آمنا وعملنا صالحًا فإننا وكما كتب لنا - نعيش حياة طيبة ويعدنا بعد ذلك بالنعيم المقيم والرضوان - أعلى مراتب الرضا والعزة - يعدنا بأروع ما كان لنا فى الدنيا - أزواجًا مطهرة - ومساكن طيبة.

والإنسان منا يحب سكنه.. بيته الذى يضمه وقرة عينه.. وسربه.. مع آماله وأحلامه.

وهو حب فطرى متأصل فى النفس.. وهو غاية المنى.. وواحة الراحة من مجاهدة الحياة.. بعد طول عناء وشقاء يومى.

حتى لقد عاتب الله الذين «قعدوا» عن الجهاد فى سبيله. والخروج مع رسوله.. عاتبهم وأنذرهم بشدة.

وهل يكون الأهل والزوج والعشيرة والمال **﴿ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله﴾.**

حب الديار.. والبيوت التى شغفتنا حبًّا هى من أسباب التقاعس.. والفرار والهوان وتولى الأدبار.

ولكن أتظل المساكن التى نرضاها.. ونلتصق فيها أحب إلينا من الله ورسوله وجهاد فى سبيله؟

وتستمر هذه الخطيئة حتى قادم الزمان وقرننا العشرين.

هذه البيوت المحبوبة. المرغوبة منا - فى عصرنا الحديث.. تتسبب حقًّا فى أخطاء جسيمة.. وكوارث مستحيلة - على المستوى العام والخاص - البعض من أجل أن تبقى مفتوحة.. ومترفة - تلك المساكن التى يرضونها - يزيفون.. وينافقون.. ويسقطون.

وكلما زادت فخامة البيوت.. وتراصت فيها الأدوات الحديثة.. زاد السقوط والجريمة.

يبغونها عوجًا دائمًا - يقفون فى وجه أى محاولة للإصلاح والتغير من أجل أن يظل لهم التميز والغنى.

البعض يبنى «مسكنه» منذ البداية - دون أساس متين - أو سليم ويأكل أموال الناس!

- وتشكل مسألة انهيار العمائر والرجال ظاهرة خطيرة.. ووباء مستفحلاً. كل ذلك من أجل النهم والجشع والرغبة فى التسلط. و- مساكن يرضونها -.

هل يمكن أن تكون غاية ما نريد الوصول إليه من دنيانا.. وحصيلة علمنا.. ونخسر من أجلها أنفسنا وآخرتنا؟

هل يكون الوجود والفكر والطموح والحلم.. من أجل «مسكن» يرضى غرورنا.. ونفقد فيه حقيقة أنفسنا؟.. أمن أجل المظهر

والوجاهة والمخاتلة يكون الثمن فادحًا لهذه الدرجة؟

لماذا لا نعمل من أجل بيوت حقيقية عامرة بالمحبة والرضا.. صحية.. يشب فيها الأبناء معافين.. أتقياء أنقياء..

عتبات مطهرة نقيم فيها الدين.. وكل ما فيها حلال طيب.

بيوتًا لا نرضاها لفخامتها أو زخرفها.. ولكن لأنها تمثل سكنًا وأمنًا.. وكنا دافئًا.

حجرات هادئة ندرك من تأملنا فيها الحقيقة المؤكدة لدينا.. هو أننا مهما كنزنا فيها.. وجلبنا لها من رياش وأثاث فهى خارجة من أيدينا لا محالة.. ولن نملكها أبدًا.. ولابد خارجون منها.

ومن قبل أوحى الله إلى نبيه موسى أن «يتبوأ» وقومه بيوتًا - يجعلها «قبلة» - ولنتأمل اللفظ المعجز «تبوأ».

وتأملت الإشارة الجليلة.. بيوت المؤمنين يجب أن تكون قبلة.. تكون - مبوأ صدق - رفيعة القدر.. عالية المكانة.. عامرة بالخير.. مقامة على ذكر الله.. منيعة بحمده وتسبيحه.. تسطع بنوره.

تتسم بالجلال والعزة والطهر.

هكذا يجب أن تكون بيوت المؤمنين حقًّا.

. فهل بيوتنا تليق أن تكون «قبلة».

أم أننا اتخذنا ديننا داخلها مهجورًا.. وعمارها بهتانًا وزورًا؟..

دين النظافة والطهر والنقاء. نظافة الثوب والبدن.. النفس

والأمكنة.. الضمائر والنوايا. ذلك الدين القيم.

فكيف بنا.. ونحن ننتمى إليه نصبر على القذارة داخل البيوت وفى الطرقات وحول السكن.. وتنفذ إلينا - من خلال عيوننا - الأمراض والأوبئة.

لماذا لا نطهر بيوتنا.. «حوانيتنا».. مدننا.. ووطننا إنسانيتنا.. و «السكن الخاص بنا» - طهارة مادية ومعنوية؟.

كيف لانضع هدفًا لعملنا إشاعة الجمال والنفع والخير من حولنا.

نعمل ونجاهد ونتطلع دومًا إلى ذلك الوعد الرائع.. أن يبوئنا الله - فى الجنة غرفًا تجرى من تحتها الأنهار.

وجاء حين من الدهر خر السقف علينا وغاب الأمان.

اعتلى قوم الجدران.. ودخلوا دون استئذان.

لم يطرقوا الأبواب أو يسلموا.. استرقوا السمع والبصر - أشعلوا - من داخلنا.. حربًا علينا.

استباحوا الحرمات.. وقدسية صلة الرحم.. تبدد الأمن والسكن ظلوا يتربصون لحظة انهيار قادمة.

وانكروا علينا حتى أن نصبر. ندعو الله.. إليه نستجير وبه نعتصم.

لكن الله غالب على أمره.. كتب على نفسه الرحمة.

فأخذتهم الصيحة، وهم ينظرون وليكونوا عبرة للمتقين.

وتأملت دعاء زوجة فرعون. ﴿رب ابن لى عندك بيتًا فى الجنة﴾.

هى مليكة مصر.. تعيش حياة البذخ والقصور..
لها ملك مصر.. وهذه الأنهار تجرى من حولها..
«والملأ الأعلى» بين يديها يرفلون - فرحين بما أوتوا - يسرفون فى الثناء والنفاق والتمجيد للفرعون وزوجه المتوجة.
ومع ذلك أدركت أمام براءة طفل صغير حمله إليها النهر أن كل مظاهر الظلم والجور وأمر تقتيل الأطفال.. واستحياء النساء على الذل والخوف.. وقطع دابر الرجال.. قصر كهذا هو السجن بعينه أو الجحيم.

لذلك دعت الله مخلصة أن يبنى لها «بيتًا» فى الجنة.. وينجيها من فرعون وعمله.. ومن القوم الظالمين.
وجعل لها ربها آية.
لديهم حقًا مظهر السكن.. زخرفة أو ثرائه.. لكن يهم حقيقة ما «بداخله» فلنجعل بيوتنا «قبلة» عامرة بالإيمان.. مترعة بالمحبة.. قائمة بالحق والعدل.
وأعظم حقيقة أن هذا الكون البديع لم ينشأ «بالصدفة» بل له خالق مدبر يقوم بالامر.

﴿أم لكم كتاب فيه تدرسون. إن لكم فيه لما تخيرون﴾

هل يوجد بين أيدى المكذبين.. العاصين كتاب أفضل.. يختارون مما فيه ويجدون القناعة بين آياته؟

هل توجد بين أيديهم أدلة وبراهين أكثر.. ومجال للرؤية والاختيار أفضل..

أم أنهم - وعلى مر العصور - يرفضون ولا دليل.. وينكرون بلا حجة أو منطق.. ويعرضون عن أيات القدرة الدالة على الوحدانية، دون تدبر للنظام المحكم، ولو تأملوا إلى الحكمة، ووصلوا إلى الإيمان واليقين.

﴿أم تسألهم أجرًا فهم من مغرم مثقلون﴾

ربما زاغوا لأن هناك من يطلب منهم أجر هدايتهم.. وهم مثقلون بالغرم، والمال لديهم أعز من أنفسهم.. وهم أحرص على الترف والكنز.. لكن الرسل لا تسأل الناس أجرًا..

إن أجرى إلا على الله - قالها «نوح» وسلالة الأنبياء من بعده.. وإبراهيم وذريته المكرمون إلى موسى وعيسى ومحمد النبي الخاتم الأمين.

لا شيء لديهم على الإطلاق... يتركون أنفسهم فى العراء هكذا - معلقين - رحلتهم إلى الخسران المبين..

يتسابقون إلى حتفهم، ينتظرون حتى تأخذهم الصيحة.. صم بكم لا يعقلون.

وإلى آخر الزمان.. نجدهم كثيرين.. كما وصفهم القرآن.. معزولين عن السمع - بمعزل عن سماع الحق أو الصوت الداعى إلى الإصلاح.. يجادلون بالباطل ويرمون المتقين بالتهم ويفترون.. صفوف متراصة.. ومنذ الأقوام التى خلت من قبل.. وامتداد العصاة المترفين والطغاة المتحكمين.. يستكبرون.. ولا ينظرون إلى أبعد من سلطانهم ومقاعدهم.. وما جمعوه.

مع أن كل ما يعبدون من مظاهر الترف والصنم ووسائل السلطة والنفوذ، متغير لا يدوم، وهو خارج من أيديهم لا محالة..

ويجدون أن حياتهم ضاعت هباءً وعبثًا.. ولم يحققوا من وجودهم سوى الضلال والغواية ومكر السوء.

ومنذ البدء تجدهم.. المترفين والعالين فى الأرض، يمقتون دعوة الصلاح والمصلحين.. يكرهون من يدعوهم إلى الحق والعدل.

يبطلون فى أنفسهم هداية العقل وهدى الدين.. والقوى المحركة للاستدلال وإعمال الفكر، والطاقة الدافعة إلى الفطرة السليمة.

وأقوام كثيرة تعيش كالأنعام.. مسلوبة الإرادة.. مضيعة الحواس.. ذاهلة العقل لا يتدبرون الأمور أو يعقلون. يرهبون الناس ويجعلون لله أندادًا، مع أن الإيمان أقرب إلى الفطرة، والوحدانية تصلح فى آيات الكون.. والدين لم يقدم لهم ما يرهقهم بل

ما ينظم حياتهم ويرتق بأسلوب معيشتهم، ويرفع أقدارهم ويهبهم العزة والجلال. ويجعل صلاتهم وشيجة حب.. ورباط مودة.

يهدينا «الكتاب» إلى صيغة الحوار.. وأسلوب الإقناع وصياغة القياس العلمى.. واستنباط للحقائق.. إلى منهج الاستدلال العقلى.. والاستنتاج المنطق.. ونظرة شاملة لوحدة الخلق والكون.

يعلمنا «النور» الذى أنزل علينا كيف يكون حديث المؤمن.. ودائرة النقاش.. وأسس الجدل ووسائل الإقناع.

دروس وعظات.. وتدريب لنكون من جنود الحق.. ودعاة إقامة العدل. ويبدأ التساؤل (أم) صيغة للعتاب المفحم.. والتأنيب المؤثر فى النفس المثير للانتباه.. مقدمة تستفهم عما وراء تفكيرهم.. وخلفية نظرتهم لقضايا عصرهم.. أدلة يسوقها العلى القدير لشحذ الالتفات واستلهام الفطرة وتنسكب إلى الأعماق فتريح ذلك الجفاف الروحى.. والجذب الوجدانى منهج للمناقشة جدير بالتامل..

وإقامة للدليل العقلى - كيف يحكمون -

هل أخذوا موثقًا يصلح العمل به.. هل يعلمون الغيب ويكتبونه لديهم فليأتوا ببرهانهم أو شركائهم..

كيف ينكرون.. ولا دليل لديهم.

خطاب موجه إلى النبى صلى الله عليه وسلم، أن يسأل المشركين كيف يحكمون على أنفسهم هذا الحكم الجائر.. ولا يحترمون عقولهم.. وقوة الحجج لهدايتهم.. وموعظة الأجيال السابقة من

الغابرين.. ويتركون أنفسهم فى غيهم سادرين.. لا يحيرون جوابًا.. ويخزيهم الله فى الدنيا والآخرة.

صياغة موجهة إلى المؤمنين أن تكون دعوتهم بالمنطق الرصين.. أن يكون أسلوبهم وخلقهم القرآن.. ويتعودون على النقاش بهذا القدر من النضج.. ووضوح الرؤية.. وجلاء البصيرة.

نداء ربانى إلى الحكام - ومن يوليهم الله شئون الآخرين - أن يلتزموا حدود الله.. ويقيموا أحكامه.. والا يحيدوا عنه إلى أهواء النفس وغواية النفوذ.. ومنزلق الاستعلاء.. أو ما يزينه لهم المترفون والمتنفعون وبطانة السوء.

تدريب إلهى نعيد صياغة أنفسنا.. ونعود به إلى نغمة الحب.. نعمل صالحاً.. ونقيم الدين لله.

إن كنتم للرؤيا تعبرون

كان أول خاطر يرد إلى ذهنى فى الصباح

(بى شوق إلى القرآن عظيم)

القرآن موعدى.. والصبح واعد.. ويجتاحنى الشوق الجميل.

نمت البارحة على هم ثقيل.. دعوت الله أن يباعد بينى واللحظة المضنية.. يمر وقع الألم.. يسرع مؤشر العبور.. يهبنى فسحة من الوقت.. الغد يوم آخر - حدث اليوم يصبح ذكرى فيه.. يحتوينا زمن جديد.

أسلمت وجهى لله.. تهدج صدرى بالدعاء (راحة النعاس يا رحيم.. وأرنا رؤيا صدق من لدنك - واجعلها ربى حقًا - وعلمنى من تأويل الأحاديث..)

شاعت الابتسامة فى ضباب غفوتى.. تذكرت النبى يوسف الصديق.. وهبه الله حكمًا وعلمًا.. وعلمه من تأويل الأحاديث.. جعله آية فى الصبر الجميل.

سبحان فالق الإصباح..

صحوت مع نبتة الإصباح الأولى.. تذكرت وعدى وموعدى.. رحلة الشوق الجميل.. يوسف أيها الصديق.. نبدأ يومنا بالتلاوة.. نستمع إلى القص الجميل.. سورة كاملة تستوفى القصة كلها..

أحاطت به البلايا منذ البداية.. نزغ الشيطان بينه وبين إخوته.. اجمعوا رأيهم أن يقتلوه أو يطرحوه أرضًا بعيدة..

استقروا أن يلقوا به فى غيابة الجب.

يتعلق بالدلو ألقاه أحد السيارة.. ويباع بثمن بخس - وكانوا فيه من الزاهدين - ويتعرض للغواية والمساومة - كيد النساء المستبدة الطامعة - أبى واستعصم.. وسيق إلى السجن برغم ثبوت براءته وعفته..

مرة أخرى يلقيه الخطاة الى غياهب السجن - ضحية لذنوبهم - ويعتصم بالصبر الجميل.

ابتسمت لنفسى.. اشرقت البسمة فى حنايا يقظتى.. شغفتنى حبًا قصته وصراعه النبيل..

يملك «إرادة الصبر».. وشجاعة التحول والتطوير لموقف الهوان والخسف والكرب العظيم..

أعيد التلاوة.. ليثبت منا الفؤاد.. ونقتدى بأولى العزم من الرسل. أمامنا طريق البرء والشفاء.. وعلاج الهموم والمحن..

فلنجدف فى البئر العميقة.. ونبحر بزورق الصبر الجميل.. ونغوص فى بحار الحكمة.. نتعلم كيف نسعى ونعمل حتى فى أشق

الظروف.. وأصعب الأحوال.. وتحت أقسى الضغوط.

وبين براثن الظلم والجور.. حتى ولو التقمنا الحوت.. أو قذفوا بنا فى بطنه.. وغيبتنا ستر الظلمة والعزلة.. وابتلعتنا الأسوار والحصون.

تابعت التلاوة..

﴿وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا، وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض﴾

استوقفتنى العبارة:

﴿مكنا ليوسف فى الأرض﴾

أخذتنى الدهشة.. تبدو غريبة بعض الشىء.. كيف تأتى بعد عملية البيع والشراء. حقًا أنقذ من البئر.. حفظت حياته.. لكنه صار عبدًا..

كيف يكون التمكين فى ظل العبودية - فى هذه المرحلة على الأقل من حياته وقصته - حتى ولو ترفق به السيد الذى اشتراه.. وأوصى به زوجته لتكرم مثواه.. هذا الفتى الواعد النضير.. سليل شجرة النبوة الساطعة.. ابن نبى الله يعقوب.. وإسحاق.. وجده الأعلى إبراهيم - كان أمة -

أين بنا إذن فى هذا الموقف بالذات من الرفعة والعلو والتمكين؟

ولكن الذى يبدأ القصة، ويتابع فصولها وتدرج الأحداث الدرامية

فيها.. يجد انه فى مواجهة الموقف العصيب.. تتم المواجهة - والمحن معلم عظيم - يدور الصراع ويتحدد الاختيار.. وبذلك يضاف إلى رصيد الشخصية من القوة والصلابة والالتزام بمبدأ الحق.. فيكون «الخروج» أكثر قدرًا وتألقًا وحكمة، ونصل إلى قمة التطوير وذروة التنوير.

يجب ألا نعيش على ظاهر الأمر فقط.. ونصل إلى نتائج سريعة ساذجة ونقول أين التمكين له فى الأرض وقد صار عبدًا!..

إنه التصعيد فى الموقف الذى بدأ بوصول العبد إلى مصر وتراوده التى هو فى بيتها عن نفسه.. وتحيط شباكها حوله.. ووعد المتعة والنعيم.. وبرغم الفرصة السانحة يتأبى.. يقاوم.. يستعصم.. يقرر الا يخون، ويهتف من أعماقه ﴿**السجن أحب إلىّ مما يدعوننى إليه**﴾

ويكون السجن هو وسام الاستقامة والعفة..

يخرج السجن عن معناه.. ويكون الحرية والاختيار..

يرتقى إلى مكان للعبادة ويكون علوًّا فى التضحية.. ومنزلا للتقوى وقوة الاحتمال.

إذن تمخض الموقف عن مفاجأة..

تهيأت الأسباب بمرور القافلة.. وتم بيعه فى مصر.. وكل ما لقيه بعد ذلك ما هو إلاّ تدريب وتمهيد لينال المكانة العالية.. ويمن الله عليه ويمكن له فى الأرض.

انتقلت الأحداث الى مسرح جديد.. مكان يلعب دور البطولة وسط العالم.. وبين أرجاء حضارة عريقة مشعة على الكون. يجعل الحدث البسيط الذى يقع فيها، لا يقتصر أثره على البلاد بل يمتد ليصل إلى أبعاد شاسعة.. وقبائل متفرقة.. ولقد اتخذ البطل موقفًا فائقًا..

وهو تمكين له بالفعل.

نحن فى وسط القصة تماما.. وعنصر التشويق يعمل فى تنوير بصيرتنا.. والرغبة فى اكتشاف الحكمة واستلهام العبرة يدفعنا لتتبع حركة الحدث وأثر نموه وتطوره..

فى مواجهة السجن.. موقف جديد ينبثق عن قمة الموقف الآخر..

ثبتت براءته لكنهم رأوا أن يضعوه فى السجن حتى ينسى الناس ما كان بشأن الفضيحة والخيانة.. وتكف نسوة المجتمع عن التشدق بالحكاية.. وكف الأفواه أن تلوك سيرة امرأة العزيز.

يوسف فى مواجهة تجربة السجن - كما لم يعانها أحد من قبل - هو قلب الحوت.. وحوله ظلمات فوق ظلمات.. ظلمة الليل والقهر وجوف السجن. ألقى به نسيًا منسيًا.. لا يذكره أحد.. ولا تتم له محاكمة أو خروج..

قذفت به السلطة إلى الداخل السحيق.. وراء الجدران

الصماء.. لا أحد يسأل عنه لا أحد يجيء.. وحيد منفى بين ضحايا الطغاة وعتاة المذنبين.

لو وقع لحظة فى هوان الوضع.. وذلة المطاف.. لو استسلم للحزن ومشاعر الشفقة على النفس.. إذن لانهار وانكسر وأحاط به حقًا كيد الخائنين. لكنه رأى الوجه الآخر من العملة التى بين يديه.. تحول إلى الضفة المقابلة من التجربة.. عبر للرؤية البعيدة الزاهية..

درس الموقف بعناية.

تقرير حالته يقول إنه يواجه ظروفًا خارجة عن إرادته - وإن كان اختار الموقف الحق الذى هو جدير به.. والتزام جانب الأمانة، وقيم التضحية، ومجاهدة النفس والخطأ..

حق النجاة كتبه الله على نفسه - سبحانه -

مصيره بين يدى من رفع الميزان.. وبقدرة من يبدئُ ويعيد..

الباعث الشهيد، يحيى بوار الأرض والناس.

القيوم.. من يدبر الأمر.

إذن ليسَ أمامه إلاّ أن يصبر.. ويتق.. ويعمل صالحًا.

(نعنى الصبر الخصيب الذى لا مجال فيه للشكوى أو الأنين.. ومذلة الإشفاق على النفس.. إنما يحوله الإنسان إلى طاقة عمل.. وتزود بالقوى.. وجمع شتات النفس.. واستجماع أدوات الجهاد، ورسم منهج الانتصار).

- الصبر الخصيب، معناه الخروج من سجن المحنة إلى الاهتمام بالآخرين، وبما يجرى حوله من أحداث.. ورفض الظلم والضيم، والاعداد ليتحول ميزان القوى.. واحتمال الشدة حتى نأخذ بأسباب القوة.. ومحاولة نفع الآخرين ووضع المشكلة الخاصة فى إطارها العام مع قضية معاناة الناس. حول السجن إلى مركز تدريب وإعداد.. ساحة للمعرفة والتعبد والاكتشاف.. مسرحًا لعمل خلاق.. ومنبرًا لدعوة التوحيد.. معملا للتعلم وتحسين الأداء. حاول أن يوقظ عقول السجناء.. من هبطت أرواحهم إلى الحضيض.. عانوا الظلم والقهر.. أو ركنوا إلى المذلة والخوف.

دعاهم للتأمل والتدبر وإعمال العقل والتفكير ﴿أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار﴾.

عمل بينهم.. كسب ثقتهم.. فتح أمامهم باب الأمل والتوبة والرجاء.

حتى أحلامهم وهواجسهم النفسية، اعترفوا له بها، وطلبوا تفسيره وتأويله.. ورؤياه المستقبلية لهم.

- كان التطبيق العملى للعلم النابع من نور الإيمان.. وعظمة التوحيد.. وهداية العقل والدين..

وهكذا تداعت مع ذكره صفات العلم والحكمة.. وبراعة التصور ودقة البيان. ولما رأى الملك حلمه العجيب - أن سبع بقرات سمان

يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات.. ونادى فى المدينة :

﴿يأيها الملأ افتونى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون﴾

لم يفلح الكهنة او الندماء.. ولا السحرة ولا الوزراء.. وقالوا أضغاث أحلام.. وهواجس منام..

وتذكره صاحبه فى السجن.. وتفسيره للحلم الذى رآه.. وتحققه بعد ذلك.. وهرع إليه برؤيا الملك.

- استطاع يوسف ان يحل رموزها.. ويحل الشفرة الكامنة فيها.. ويستخرج الإشارة الموحية -

(وهبه الله نورًا وعلمًا ونفاذ بصيرة.. كان يحلل الحلم من منظور واقعى.. ويجيد تفسير الرموز على أسس علم الاجتماع ودورة الاقتصاد وأحوال الناس) وثبت لديهم صدق فراسته.. عمق نظرته.. واقعية تحليله.. وسعة علمه وخبرته.

﴿وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين. قال اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم. وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض..﴾.

وكذلك أعيد تكرار الآية مرة أخرى..

﴿مكنا ليوسف فى الأرض﴾

يأتى تكرار النغمة الرئيسية.. لتؤكد المعنى.. وتنبه إلى يقين الغلبة والانتصار لمن يلتزمون بمنهج الله..

ومن منا يخرج من السجن إلى قمة الحكم والمسئولية.. لم يهزم داخل الأسوار، ولم يتمزق من العزلة والحصار..

مكن له فى الأرض حقًا.. لأن ساحة المحنة اكتسب منها المزيد من القوة الروحية.. وصفاء الذهن.. واللياقة النفسية.. والإعداد لما يلزم لإقامة العدل بين الناس..

خرج من السجن مرفوع الرأس عالى الهمة.. عميق الخبرة.. اختار موضعه بعناية ودقة.. قال اجعلنى على خزائن المال.. وهو حفيظ أمين..

(أى أنه وضع نفسه.. الرجل المناسب.. فى المكان المناسب.. فى الوقت المناسب أيضًا) يعلم بخبرته ودرايته أن الاقتصاد أساس الحكم.. وإدارة شئون الناس.. قاعدته الأولى كانت عدالة التوزيع..

مارس تحقيق العدل والحق والمساواة.. «ولكل كيل بعير» ليس للمواطنين فقط بل الجيران والدول القريبة والمحيطة، وكل من يطلب العون من مصر والغوث من القحط والبوار والجوع.

هى نظرة إنسانية تشمل الجميع.. صدرها من مصر - قلب العالم - وقبلة الجميع. وهو كيل يسير على مصر.. مع تقديمه الإخوة والصداقة وإكرام الضيف والإشراف الدقيق على التنفيذ.

ذلك لأن العدل يصلح الجميع.. والعدالة ترنو إلى ازدهار إنسانية الإنسان.

(لم يخترع مبدأ التبعية الغذائية والتبعة الاقتصادية مثل هذه الأيام) بل صدر من مصر قواعد الحق والعدل.. وقوانين المساواة والإخاء.. بشكل لم تشهد الدنيا له مثيلا - وحتى هذه الأيام.

هدف القصة يتضح إذن..

من العبارة البليغة المكثفة..

عندما يواجه المؤمن حدثًا فوق طاقته.. خارجًا عن إرادته.. محنة ابتلاء عظيم.. عليه ألا ينهار.. يهن أو يذل ويقبل المساومة وفتنة المراودة عن النفس والكرامة..

يبدأ بتحليل المشكلة.. معرفة جوانبه المختلفة.. يقيس موقفه بمقياس الدين.. بحرية الاختيار التى وهبها الله له وعلمه المنهج والبيان..

يصبر ويبق ويعمل صالحا..

حتى فى أسوأ الظروف لا يتوانى عن أداء مهمته.. وبين الناس - وهو يفكر فيهم يمكن ان يستلهم حركته.. ويكمل عدته.. ويكشف الطريق الصحيح.

الحلم المشترك!

قالت الصغيرة:

«من أحب صفات أبى أنه - يحلم معى -

وتذكرت كيف كان يصغى لخيال طفلته.. ويعيش معها ومضات حلمها.. ويجدف إلى عالم البراءة والنقاء.. والرؤى البهيجة الواعدة.

كان يقول: الأسرة تعنى حلمًا مشتركًا.

حقًّا.. الأسرة لا تعنى مجرد أشخاص يعيشون معًا.. ويلتصق وجودهم بين صيغة الزمان والمكان.

قوام الأسرة أن يكون لها «حلم مشترك».. يعيش بين جنوبهم.. وتسعى أعمالهم وتفكيرهم لتحقيقه..

«حلم» يصنع على أعينهم.. ويوحد بينهم.. يخفف معاناتهم.. ويوثق روابط المحبة بينهم..

أروع تعريف للأسرة

فما بالكم بأمة؟!

الأمة ليست مجموعة افراد.. يعيشون متجاورين.. فوق أرض

واحدة.. لكنها «حلم مشترك» يوحد الجهود.. والفكر.. والعمل.

دنيا قادمة من أجل غدنا ومستقبل أحبائنا.. جهاد ليوم نحقق فيه الخير والعدل للجميع..

وإلا فلننظر لحال أمة تفرقت فيها الكلمة.. واستبدت بها الأهواء.. وجنحت بسفينتها عوامل الشراهة والأنانية والجشع.

نجدها وقد تفتت قواها.. وفقدت الارتباط والألفة.. وشاعت الفرقة والأنانية.. وعم الفساد.. وضاعت بين أهليها الثقة..

شقاء.. وعذاب أن تعيش مجتمعًا تغلب فيه المنافع الشخصية على المصلحة العامة ويتبدد فيه نسيج الوحدة.. ودفء المشاركة.

ونظرة إلى تاريخنا القريب والبعيد.. نجد أنه ما اجتمعت الأمة والتفت حول أحد أبنائها او أبطالها. إلا أنه يمثل لهم «ذلك الحلم الجماعى الجميل» ويعبر عنه.. ويسعى فى مقدمتهم لتحقيقه..

تلك هى الشرارة المقدسة التى تنطلق فإذا الأمة كلها رجل واحد.. وإذا الجهود موحدة.. والعمل متسق ومتصل من أجل تحقيق الهدف..

كذلك الشعوب كلها..

كذلك تبع الناس الأنبياء والصالحين.. لأنهم كانوا يجسدون «حلم الإنسانية كلها»..

حيث يعيش الناس فى سلام ومحبة.. وحرية واسعة.

والإنسان يوجد وقد زوده الخالق العظيم بتلك القدرة الفائقة على

« الحلم ».. قوى نورانية تجعل عيونه مشدودة دائمًا إلى أمام.. لا يكف عن البحث.. والاكتشاف والتقدم..

والعالم يدين للحالمين العظماء.. الذين تصاعدت نظراتهم إلى السماء.. وفوق الماء حيث يحلمون بجسوم طائرة تحمل الإنسان وتصله.. وفلك تجرى فى البحر بما ينفع الناس.

وفى كتابنا الكريم يخاطبنا الله تعالى على أننا « أمة ».. ويؤكد لنا ضرورة وحدة الأمة.. وارتباطها وتكافلها أيضًا..

يقول تعالى:

﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ﴾

الخطاب هنا موجه إلى « الأمة » بأسرها..

والنهى فيه عن سفك دم بعض.. وإخراج فريق منا من ديارهم او أوطانهم.. فجعل دم كل فرد من أفراد الأمة كأنه دم الآخر.. وكل تشريد من الديار والأوطان يقع فيه التيه والضياع فوق رأس كل منا..

يقول الإمام محمد عبده: « هذا التعبير المعجز يبدى الأقوام للأمم إلا بالتحقق بما تضمنتها هذه الحكم.. وشعور كل فرد أن نفسه هى نفس الآخرين.. ودمه دمهم - لا فرق بين الروح التى تجول فى بدنه والدم الذى يجرى فى عروقه، وبين الأرواح والدماء التى يحيا بها إخوانه ».

والحجة قائمة إلى الأمة الإسلامية - المخاطبة بالقرآن - بالعمل بهذا الميثاق وتطبيقه حتى ينصلح حالنا.. ولا ننق داخل ديارنا.. ونفقد إيماننا وأمننا..

ونحن أمة العرب.. هل يجمعنا «الحلم المشترك».. ويوحد بيننا..

لقد أهدرنا «دمنا» وسفكنا دماء بعضنا.. وشاهدنا بعيون باردة.. أو «محروقة» خروج بعضنا من ديارنا.. وتقتيلهم وتشريدهم.. وأسر الآلاف من أسرنا وأبنائنا.. صارت أحلامنا «هزيلة».. وسقيمة..

وتفشي وباء النفعية والانتهازية.. وأكلنا أموال بعض.. وحقوقهم بالباطل.. فهل نعود - كما أرادنا الله أن نكون -..

قوم عدل وخير.. نقيم قرآننا.. ولا نجعله مهجورًا بيننا.. ونشفى فيه من الأوبئة المتفشية بيننا.. ونسعى بالعمل الصالح..

حتى يسطع حلم الحرية والإنسانية بيننا..

يمشي في الأسواق

انصت للتلاوة..

الشوق يمد بى.. نفسى حاضرة السمع.. تعلو إلى الدرجات العلا.. تتدرج فى الارتفاع الى النور المقروء.

استوقفنى المعنى فجأة.. تنبهت بشدة.. عجبت للمنطق الغريب.. يلوون عنق الكلمات.. ليًا بألسنتهم عن صدق البيان والوضوح.. تبدت الحجة شاهدة.. واستوت الآيات بينة.. وسطع الحق قائما - وبنفسى أنت يا رسول الله - وهل كنت إلا بشرًا رسولا -

ماذا يقول الظالمون عن الكتاب.. الفرقان.. الهدى والنور.. بشرى القلوب المؤمنة، وتبيانًا لكل شيء وتثبيتًا للأفئدة.

يقولون افتراه.. أو هو نوع من التأليف الجماعى ﴿أعانه عليه قوم آخرون﴾.

و ﴿أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه﴾

﴿ وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ﴾

ربما استمعوا إليه لو أنزل معه ملك.. أو امتلك كنزًا وجنة.. عميت بصيرتهم حتى أشاروا إلى موطن العظمة فيه.. إلى منطقة الجذب التى شدت الجميع إليه.

هو إنسان بسيط وعظيم فى الوقت نفسه.. يأكل الطعام.. وأحيانًا لا يجد ما يأكله أو يقدمه لآل بيته.. ويمشى فى الأسواق.. بل ويزيد على ما يقولون « ابن امرأة تأكل القديد ».

لم تختلف حركته.. ولم يعزل نفسه عن أحبائه وأصحابه الذين آمنوا برسالته.. لم يتغير طبعه عندما أتاه نصر الله وكتبت للمسلمين الغلبة والفوز.. ظل كما هو كأنه القلب النابض لجماعة المؤمنين.. قلب الخلية الأولى الحية فى العمل والأداء.. فى الحركة والسلوك.

لم ينأ بنفسه عن الجمع أو يحيط نفسه بالحراس والأتباع.. ظل « ببردته » الوحيدة ونفسه السمحة.. وتفانيه فى إبلاغ الرسالة.. والقيادة.. وإدارة أحوال المسلمين.

هو نفس الفتى - الصادق الأمين - الذى كان قبل المهمة النبيلة التى اضطلع بها.. والذى كانت تلجأ إليه قريش فى خلاف المترفين بها.. ومزايداتهم المظهرية.. فيحل لهم النزاع ببساطة.. وحسن روية.. وبتلقائية فى التفكير، سليمة ومستنيرة.

بهذه المقومات الإنسانية النضرة.. والنهج المعتدل والأسلوب البسيط من العيش، اكتسب محبة الناس وتقديرهم.. وأهلته لأن يقود أروع ثورة تحرير فى تاريخ البشرية.. وتبقى الرسالة ساطعة إلى الأبد.. ونموذج الإنسان فيه فائقًا.

هو أمل البسطاء والكادحين.. المعذبين فى الأرض.. ممكن أن يرتفع الإنسان بنفسه.. ينفض الذل والهوان.. تملؤه رسالة التوحيد قوة وثقة.. يصوغه الإسلام، وأيًا كان موقعه من الحياة.. يكتسب العزة والجلال.. ويعيش حياة طيبة.. مليئة بقيم المجاهدة والسعى، وتحسين الأداء والعمل الصالح. لقد تحققت المعجزة.. وهى قائمة حتى يرث الله الأرض ومن عليها.. رأينا كيف بعثت أمة من جديد.. وكيف صارت حضارة ومنارة.. استجاب لدعوة الحق فى البداية، العبيد والإماء والمستضعفون فى الأرض، آمنوا.. فعلت قاماتهم.. وأشرقت نفوسهم بنور الإسلام.. والتزموا منهج القرآن.. صار كل منهم كتيبة.. جيشًا بأكمله.. أمة..

لم يشعر الواحد منهم أنه فرد.. بل إنسان فى جماعة المؤمنين.. قوة داخل كيان هائل للمجاهدين.. طاقة لمحرك النور.. ووحدة فى البنيان المرصوص.

صاغهم الإسلام من جديد.. وحد بينهم.. طبع أسلوب حياتهم.. أصبحت الحياة أكثر نبلا وعدلا.. تذوقوا معنى الإخاء والمحبة والمساواة.

وبنفسى أنت يا رسول الله..

أنت فينا الأسوة الحسنة.. والقدوة العظيمة.. ولدينا الكتاب والحكمة.. ومع ذلك تدهورت أحوال المسلمين وانفرط عقدهم.. عندما اتخذوا القرآن مهجورًا.. واشتروا بآيات الله ثمنًا قليلا. واعتقد البعض منهم أنهم مركز الكون، وأن العظمة تأتى من كثرة الاتباع والحراس وجماعات المنتفعين، والقصور والحلى وأسباب الترف الكثيرة.

يعيشون عيشة أفراد.. يتربصون بالكسب من أى اتجاه.. ولا يعيشون كأمة واحدة.

العظمة الحقيقية تنبع من أن يملك الإنسان نفسه، لا يتركها تتبع الهوى وتركن إلى من يزينون السوء حسنًا. العظمة تكمن فى النفس فى تقوى الله.. وعدم الاستكبار.. فى الوقوف بجانب الحق والعدل.. الخلاص كله أن نقيم القرآن.. يكون نهجنا.. وأسلوب عملنا.. وخلقنا..

الرسول عليه الصلاة والسلام.. هو عظمة التطبيق والالتزام بالعقيدة السمحة - خلقه القرآن -

السماحة والمشاركة وحب الآخرين والعمل من أجلهم.. والسبق فى الخيرات والعقلية المستنيرة.. والقياس بمقياس الدين.. وإقامة ميزان العدل - إعمال العقل ترك الأثرة والفردية المقيتة..

ترك هوس التعصب والغلظة..

مفردات الشخصية الإنسانية النضرة.. من الود والحنان، والاهتمام

والمشاركة والرغبة فى نفع الناس.. أغلى من كنوز الدنيا ومظاهر الترف وأدوات الاستعلاء.

ماذا كانوا يريدون من الرسول..

أن يأتى جبارًا إلى الأرض.. من الملأ الأعلى.. يعتو عتوا كبيرًا..؟ أم إنسانًا عذبًا.. رقيق المشاعر.. يجادل بالتى هى أحسن.. ويشاورهم فى الأمر.. ويحفظ العهد والود.. ويعانى كل لحظات المخاض للدين الأكمل.. ويحتمل الشدة ويصبر.. ويضرع إلى الله بالدعاء.. «الدعاء الخصب» وهو موقن بالاستجابة.. لأنه يعمل مثل الجميع ويشق الخندق معهم.. ويحفر فى الأرض.. ويعد العدة.. ويدير الخطة.. ويسهر على الإعداد النفسى والروحى لجنود الحق.

«أمل بديع» يظل مشعا كل زمان ومكان.. أمل عظيم للبسطاء.. عمل الإنسان هو ما يقيمه ويحدد قيمته.. به يسمو ويحقق وجوده.. ويؤدى مهمته.

وصفه الله سبحانه وتعالى «سراجًا منيرًا».. وأفسح لنا - سبحانه - المجال لنرتفع بالتقوى إلى منزلة نورانية ربانية كبيرة.. أن يكون الواحد منا سميعًا.. بصيرًا..

نور نهتدى به فى أيامنا العسيرة.. مرتفقًا نصعد إليه ونفر من هوان أيامنا.

نموذج أمثل للمعذبين منا.. البسطاء الكادحين.. الطريق إلى الرفعة والسمو واسع وفسيح جدًا. لا يملك أحد أن يعطله ويحول دونك.. متاريس الأرض وصواعق الزمان.. لا تهدم الطريق أو تعرقله.. طريق يقف على قمته الرسول القدوة الإنسانية..

كان ناضجًا وواعدًا وهو فتى صغير.. الصادق الأمين وهو راع بسيط. يأتى ذكره بالخير والانبهار فى كل مكان.. ويدخل طيب ذكراه إلى الدور والنفوس.. والصادق القوى الأمين، وهو يعمل بالتجارة ويتنقل بين القبائل.. ويرعى حقوق الآخرين.. وينمى أموالهم.

ثم وهو المعلم والقائد والرسول..

(هل كان الراعى الفقير يقتدى به ويضع أسلوبه فى عقله وقلبه.. ويستعفف بالآيات فى حواره مع الحجاج.. عندما دعاه على تأفف منه للطعام.. وتعرفون ما الحجاج - الخطيئة والعورة بين حكام المسلمين - كلمات الراعى كانت تقطر حكمة واستقامة وبيانًا وتفصيلاً:

«دعانى الذى هو خير منك - إنى صائم - ما عند الله خير وأبقى.. هل أفطر اليوم وأصوم غدًا؟.. أو يضمن لى الأمير أن أعيش إلى غد..»

ما الذى يجعل أسلوب الراعى الفقير مترعًا نفرًا.. زاهيًا ويفحم

الحجاج الطاغية..

* أسلوب هذبه الإسلام.. وصاغته السماحة والعفة وحلاوة المجاهدة في سبيل الله.)

إن مقياس الثراء والترف - مقياس فصلك لمعرفة أقدار الرجال..

المقياس الحق عمل الإنسان..

العظمة الحقيقية أقامها الرسول..

مجاهدة النفس.. القدرة على الاحتمال.. كظم الغيظ.. دراسة الموقف. للجماعة دائمًا.. وعمل تحليل للموقف.. وحسن الإعداد.. ودقة الاختيار ثم تأتى مرحلة العمل.

ويتهاوى منطق الجهلاء..

لو كان له من السماء ملك.. لقالوا إنه يقدر على أشياء لا قبل للبشر لها.

حتى منطقهم يتهاوى عند مناقشته وتفنيده..

ولو كان ملكًا.. لقالوا إنه أهل للسمو والتفوق عليهم.. إذ أن طبيعته وقدرته تعلو عليهم كثيرًا.

هو الجدل إذن ما يرجون.. والاختلاف هدف فى حد ذاته.. وبذر بذور الفتنة والانقسام.

قاتلهم الله - كانوا قومًا بورًا -

هم القوم البور حقًّا.. إذ يتركون ما يمكن إدراكه ببساطة..
بوضوح رؤيته والمنطق الفطرى السليم.. ويزرعون منطقًا زائفًا..
يحسبون أنهم بمكرهم سيخدعون الناس جميعًا.

بدر مثل الأرض الخراب لا يحيى موتاها المطر.. وتظل خامدة
هامدة حتى بعد أن يُنزل الله عليها من السماء ماءًا طهورًا..

جدباء تصرخ بعارها..

وهم أيضًا.. امامهم الآيات البينات.. والحق الواضح ومع ذلك
يستمرون فى الخداع.

النبى العظيم، كان بسلوكه الإنسانى، وصفاته المحببة، عامل
جذب ومؤثرًا للاستماع للدعوة، والدخول إلى دين يتساوى فيه
الناس.. والإنسان يقدر فيه بما يعمل وما يحققه من عمل نافع..
ويتبادلون الإخاء والمحبة والمشاركة.

يصبحون قوة.. جمعًا.. بعد أن كانوا عبيدًا.. أرقاء..
منبوذين.. أو أفرادًا متفرقين..

أحسوا بدفء الانتماء.. وحرارة المشاركة.. وصيغة الجماعة..
وقيمة العدل والمساواة.

كان الأثرياء بالطبع يقاومون خوفًا على ممتلكاتهم وامتيازهم..
كان نزغ الشيطان يعمل بينهم.. كيف يتساوون مع الإماء والعبيد..
والرسول يمشى لهم فى الأسواق..

يدعو لدين الحق.. دعوة لتحرير الإنسان.. انطلاقه من العبودية والخوف والمهانة..

من ذلته أمام أصنام وأحجار لا تنفع ولا تقدر ولا تغنى عنهم شيئًا.

حرية كاملة للإنسان..

يمشي فى الأرض.. يقرأ.. ويسمع. ويغى ويتأمل.. ثم يختار لنفسه الموقف الجدير به.

هكذا بدأت رحلته..لا يقتنع بعبادة الأصنام.. يدير وجهه إلى السماء.. كان يعد نفسه لأمر عظيم..

تدريب شاق.. وصيام.. وعكوف على التدبر والتأمل.. يبنى نفسه وينمى قدراته ويعتقد أن أمامه مهمة كبيرة.

- كان يصنع على أعين الله

ونحن نستطيع أن نقتدي به. ونبدأ فى التدريب والإعداد.. وبناء أنفسنا ومجتمعنا.. الصياغة بخلق القرآن من جديد..

وبذلك نتحول إلى قوة.. جمعًا.. طاقة خلاقة.. ومحركًا للتاريخ.

إياك نعبد وإياك نستعين

كنت أدرس بعض لمناهج عن الأداء المسرحى.. والخاصة بتدريب الممثل.

تتلخص التجربة فى المعمل الفنى على اكتساب القدرة على التركيز، والسيطرة على إيقاع التفكير والوسائل النفسية والجسدية، بحيث تتوافق الحركة الداخلية مع سائر الأعضاء والجسد..

- يسمح الممثل للدور أن يتخلله.. ويحيا الشخصية بصدق، حتى ليهب نفسه تمامًا ويقدمها كل ليلة للمشاهدين.

وهو بذلك يخرج من حدود فرديته إلى صيغة جماعية.. ويحيل اللحظة المحدودة إلى لحظة إنسانية زاخرة.

والفنان هنا بقدر ما يبنى نفسه ويثرى من قدراته ويحسن أسلوب عمله.. بقدر ما يسعد بالتجاوب مع الآخرين.. والمشاركة معهم وتنمية متعة الفهم والإدراك لديهم.

ويشعر بعد العرض أنه أكثر حكمة ونضجًا.

قلت لنفسى :

يحتاج الممثل والعازف، إلى هذا النوع من التدريب الممتع الشاق، حتى يكتسب تلك القدرة غير المحدودة، على الحب والتأثير والنفاذ داخل النفس البشرية، وإلغاء المسافة الزمنية بين الإحساس الداخلى والحركة العضوية خارجه.

كل هذا التدريب العملى وتمارين اللياقة البدنية والروحية.. والصبر وحسن الإعداد.. من أجل توصيل معنى.. الكشف عن قيمة إنسانية وبثها حياة لتزدهر فى قلوب الآخرين وعقولهم.. وتدفعهم إلى مناقشة أحوالهم إلى الرغبة فى التغيير والتقدم.. إلى اتخاذ موقف.. والنضال من أجل حياة إنسانية أفضل.. ومعيشة أكثر عدلا ونبلا.

أحسست بغيرة دينية شديدة.

فما بالك بالإنسان المسلم.. وعليه أن يدعو لدين الحق.. ويلتزم فى سلوكه وعمله وأسلوب تعامله مع الآخرين بشريعة العدل وصبغة القرآن.

يمكن للفرد المسلم أن يتحول إلى «أمة».. قوة.. طاقة عمل مشعة.. وجهد فائق يسعى للوحدة مع مجتمعه وإصلاح الأحوال.

لماذا لا نقوم على تربية أنفسنا بالقرآن؟.

والأمر جاء بإقامة الصلاة..

(ذروة التدريب النفسي.. وفرض الإعداد واكتساب اللياقة..

والقوة الروحية.. والتدرج إلى صيغة الوحدة مع الجماعة. والسعى إلى «كلية» نورانية عالية)

ونحن نصلى فى اليوم خمس مرات..

لحظات على مدى اليوم.. وحدتنا الزمنية المتاحة والمعجزة التى تتكرر وتوضع بين يدينا من جديد كل صباح.. رأسمال يغدق علينا، ومؤشر «الحساب» يسجل كيف كانت حركتنا وفيما أنفقنا اللحظات والثمار وذرات العمر ودورة الأيام.

فكيف لا تكون الصلاة معملنا الروحى.. ومكان وزمان انطلاقنا الى عملية التطوير والتغيير والانضاج.. وتكون الصلاة وسيلتنا لتحسين الأداء.. والتدريب على التفتح الإنسانى والعقلى.. ورابطة اتصال ومودة.. وشحنة دافعة لإعادة الوحدة بيننا والناس. وجعلها أسلوب عمل وحياة.

نتدرب أن نعطى الحركة العضلية فيها مضمون كلمات الله.. ونعيد صياغة أنفسنا بها.. وتوافق الإيقاع الخارجى مع يقظة الروح الداخلى وفعل الترتيل والسعى إلى التقدم والارتقاء.

تشغلنا صغائر الأمور.. وهموم الحياة، حتى لتنفذ داخل الصلاة.. وتقعد لنا عن يمين وشمال ولا تدعنا نتحرر منها لحظة المثول بين يدى الله.

وبذلك يشرد من الذهن.. ويضيع التركيز. ويفرغ الركوع

والسجود من معناه، ويتحول إلى تحرك عضلى مجرد.. «وتأفل» الروح برغم الصلاة.

قلت لنفسى..

ولماذا لا نبدأ من جديد.. ونقيم «معملنا» للتدريب على المستوى الخاص والعام.

نعقد العزم على التدريب.. ونؤدى التمارين العقلية والنفسية التى تكسبنا اللياقة، لإقامة الصلاة وتصل بنا إلى التفوق والازدهار.

- وما الحياة الا مسرح كبير.. وهى دار امتحان وبلاء.. والتقدير فيها يكون على حسن العمل.. ودقة الأداء، والتزام حدود الله.

الصلاة هى الأساس..

قدرها الرحمن خمس مرات.. بين الإصباح. ووقت الظهيرة.. والعصر.. وحين الغروب.. وعند المساء.

وحتى تستمر دورة التحسين.. والتقدم.. والتفوق والإتقان.. لنظل اليوم عاملين.. متقين.. ملتزمين بقيم الدين.. والخلق الحسن.. وطهارة النفس والبدن والحواس.

ندخل إلى المثول بين يدى الله..

وإن هى إلا لحظات.. ونقوم إلى اللقاء..

(كيف لا نجعل الصلاة تتخللنا.. ونهب أنفسنا تمامًا إلى الله.. ونصر بوعى وإدراك على التقدم.. والارتقاء)

تأملت الموقف من جديد..

يجمع الإنسان فى الصلاة بين شيئين..

الخضوع التام وقمة الإحساس بالقوة..

يحس المرء بمنتهى الخشوع والتضرع.. وذروة مشاعر الثقة والعزة والخشية والرهبة.. وغاية التحرر.

الاستعانة بالله.. ونبذ الخوف من سلطان الطغاة.

يحدث الواحد ربه كفرد.. ويناجيه بصيغة الجماعة.

الصلاة عمود الدين..

والفاتحة فيها العماد..

تتكرر كل ركعة.. وحتى نقضى على التشتت.. والسهو والنسيان، علينا أن نتمثل الكلمات.. جعلها تتخللنا - تلك السبع المثانى من الآيات - وبذلك ندخل إلى جوف القرآن.. إلى حمى الطاعة والاستعانة والهدى والشفاء.

نحرر أنفسنا من الغوص إلى الصغائر والمشاعر الضارة ونزغ الشيطان. نتحرر من توافه الأمور. ورواسب الأنانية وضيق الأفق والمنات. نحصل على فسحة من التركيز.. الصفاء والانتباه..

نصغى إلى التسبيح.. نحس بالرفعة والرغبة فى احتضان الكون.. تخفت كل الضوضاء..

ونقف بحضرة الله.. معه.. نلتحم بدعوته.. نسجد له سبحانه نقدم أنفسنا تماما.. نهبه إياها.. يعيدها إلينا مليئة بالنور.. مشحونة

بطاقات مبدعة، وننمى لدينا متعة التفكير والتدبر والعكوف على حل الصعاب والمعوقات.

هذا الدخول من وإلى الصلاة.. وإقامتها ينضج النفس.. ويرق الوجدان.. ونظل فى التدريب حتى نملك أمر أنفسنا.. ونملأ الفراغ داخلنا.. ينمو الفكر.. يدفعنا إلى السلوك الصحيح. ونحقق أنفسنا.. ويكون سعينا إلى مزيد من العمل الصالح، والإنتاج النافع، وتحقيق الخير والازدهار.

(الفاتحة) تجمع فى إيجاز عميق جوهر الدعوة والمنهج والطموح. نبدأ فيها بذكر الله - الرحمن الرحيم - نحمده ونثنى عليه.. له الملك والحساب..

﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ تلك هى النغمة الأساسية للالتزام.. موثق وعهد.. نقيمه ونؤكده ونلتزم به .

عبارة موجزة.. مكثفة.. عميقة المعنى..

العبادة لله وحده.. **﴿إياك نعبد﴾**، التخصيص له وحده **﴿وإياك نستعين﴾**، الاستعانة به فى كل أمر.. لنكون كحكمة خلقه فينا.. فى أحسن تقويم.. صالحين.. نافعين.. متقين.

هى القلب - من أم الكتاب -

حتى وأنت فى داخل دارك.. وبزاوية ضيقة داكنة.. تصلى بمفردك.. لكنك تدعو ربك بصيغة الجماعة.. بلسان المؤمنين..

أنت فرد حقًا.. وأنت جمع أيضًا..

هنا حددت موقفك.. وعرفت منهجك.. واتخذت موقفًا. تبغى الاستقامة والطريق المستقيم..

حددت اختيارك - الهبة التى منحها الله لك، وفضّلك على العالمين.

أدركت وجود الطريقين..

طريق الاستقامة وطريق الضلال.

تختار..

اخترت.. فالزم.

لذا تدعوه سبحانه بصيغة الجمع.. أنت عضو فى حزب الله.. جندى بجيش الحق.. ومجاهد داخل كتيبة النضال.

من حقك أن تضفى هذه الجماعية على نفسك.

والله يعلى من قدرك أيضًا، ويخاطبك من خلال المؤمنين.

روح الفريق هى التى تدفعك للحركة السليمة واتجاه التقدم..

«وإقامة القرآن» تقدم لنا الحل لمشكلات الحياة.

والتربية على القرآن تبنى أمتنا من جديد.

وكان أبوهما صالحًا

كان نموذجًا فائقًا من الإيمان الثابت والراسخين فى العلم.

حباه الله بسطة فى الجسم والعقل ولسان صدق وحكمة.. أعجبنى منطقه.. يقول: وأين تذهب الحسنات الطيبات من العمل.

تدخر لنا فى السماء.. تسجل فى كتابنا.. وهى ميراث الأبناء فى الحياة الدنيا - ومن بعدنا.

فى قريتنا يقولون دائمًا.. اعمل خيرًا وألق به فى البحر.. (النيل البديع يدعونه بحرًا.. وروافده)

تأملت هذا المثل.. حقًّا دورة الماء لا تلبث أن تعود إليك من جديد.. محملة بالخير والأمل.. والمزيد من العطاء والنماء.. وتجده - الخير - أمامك حاضرًا.

وإن طوتك صفحة الزمان - وجاء موعدك - فإن ابنك من بعدك - إن كان صغيرًا ضعيفًا - أو اشتد عوده، وتعمل صالحًا.. فهو يورثه ويناله أثر سعيك المستقيم.. وثمر غرس يديك.. ويدركه الحصاد رابيًا. وهو ميزان الحق والعدل.

نتاج الحرث الطيب والزرع.. حتى ولـو كانـت كلمـة طيبـة لا تلبث أن تنمو فى حقل عملك شجرة طيبة.. ثابتة..

ويثبتهم الله بقول الحق والذكر الحسن.

وجاءتنى الآية بالبشرى.. عندما تبـع مـوسى العبـد الصـالح - الذى آتاه الله من لدنه علمًا حذره أنه لن يستطيع معه صبرًا - وموسى يؤكد أنه سيجده إن شاء الله صابرًا..

فمن يرد أن يتعلم ويعرف فلابد أن يصبر.. ويتأمل كثيرًا.. ويتدبر الأمر.. ويمعن فى الاستدلال والبحث

وصار الرجل يأتى بأمور غريبة ومثيرة حقًا.. بدايات لا تنبئ عن نهايات صحيحة أو حكيمة.

هنا لم يطق موسى صبرًا - وكيف يصبر على ما لم يحـط بـه خُبرًا - بل لقد نفد صبره.. ولم يحتمل رؤية الأمـور تـكاد تـكون مقلوبة والتصرف يأتى عكسيًا.. مناقضًا لطبيعة الخير والصلاح. وأخذ العبد الصالح فى التفسير.. وتحليل الـواقعة تلـو الأخرى.. وإبـراز جوانب أخرى للموضوع كانت خافية، بحيث يستقيم الفعل وتتبدى معقولية الحل.

هو درس لنبي الله.. ودرس لنا.. وعبرة..

يجب الا تأخذ بشواهد الأمور.. بل علينا أن نتعمـق فى الفهـم وننظر من كل جوانب المسألة..

قد تبدو الحكمة خافية علينا.. أو غـير منطقية.. ولا منسـجمة

مع بدايتها والهدف من الإتيان بها..

ولكن عندما نتعمق الموقف أكثر. ونقيس بمقياس المصلحة العليا والنظرة البعيدة الثاقبة، التى تستشرف النتيجة الخير بدل مظهرية الحلول والنفع قريب المدى.. يتبين لنا الأفضل.. وجوهر الحقيقة أكثر هذه مرحلة..

ومرحلة أخرى أعلى درجة ويقينًا.. هو الأخذ بأن كل ما يأتى من الله فهو خير.. ما دمنا نعمل صالحًا ونقيم الدين ولا نتعدى حدود الله.. فحتى لمّا جاءت النتيجة على غير ما نتوقع ونظن.. فلابد أنها خير. وأراد الله لنا فرجًا ومخرجًا.. وفرقانًا مبينًا..

علينا أن نجاهد أكثر. ونتعلم ونتدرب حتى تبين لنا الحكمة وتتجلى الصورة.. أو يمدنا الله بآية مبينة.

العبد الصالح وموسى أتيا قرية لئيمة.. أبت أن تضيّفهما أو تطعمهما..

وفى طريق الخروج.. جائعين متعبين أتيا جدارًا يريد أن ينقض فأقامه.

هنا ثار موسى.. ولم يسكت عند الغضب..

قال ﴿لو شئت لتّخذت عليه أجرًا﴾ هنا مجرد الرؤية المسطحة للواقعة.. لماذا العبد الصالح.. يقيم جدارًا يتداعى.. ويسند حائطًا يخر عليهم.. وهم أهل سوء وقوم بور لا يستحقون.. وأبوا أن يلقوا إليهما بكسرة خبز تسد ألم الجوع.

وتجيء الآية بالبشرى وبتفصيل ما خفى من حكمة..

﴿وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمرى ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرًا﴾.

هو الثراء الحقيق إذن.

والذى ادخر لهما.. هو ميراث السماء.. ورعاية الله لذرية ضعاف - كان أبوهما صالحا -

إذ يهيئ لهما الأسباب.. ويحفظ كنزهما - ويوحى إلى العبد الصالح أن يقيم الجدار، فلا يصل إليه أحد من الأشرار والمستغلين وأكلة أموال اليتامى.. وحقوق الغير.

- حتى يبلغا أشدهما - ويكتشفا الكنز..

فإن سارا على نفس المنهج القويم والعمل الصالح.. نمت الثروة وربت..

وإن سلكا الطريق الآخر.. ضل سعيهما.. فالاختيار يبق قائمًا أبدًا.. والعمل الصالح يأتى ثمره حتى ليحصن الصغار الأبرياء.. هو لنا الخير والثواب.. ونعيم الدنيا والآخرة.. وهو رصيد لأبنائنا من بعدنا يحفظه الله إليهم حتى يبلغوا الرشد ويتحمل كل منهم تبعة عمله واختياره.

وهو ليس الكنز المادى فقط تحت الجدار.. أو صرة النقود

والعملات، بل هو كنز حقيق من عند الله لأبنائنا من بعدنا..

حنانًا من لدنه وودًا.. ويجعل لهم آية..

وأفئدة من الناس تهوى إليهم..

ويجعل لهم نورًا.. ورزقًا.. وسلطانًا نصيرًا..

فأى ضمان.. وطمأنينة واستثمار لعملنا الطيب وسعينا النافع للناس.

لمن المودة؟

كانت الآية واضحة مبهرة ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا **عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة**﴾، ومع ذلك لا نتدبر القرآن.. ولا نعى عاقبة التحذير الإلهى.. ونسر إليهم بالمودة والابتسام لأعداء الحياة.

لما يسكت عنى الغضب.

وقد استمعت إلى أنباء عن أمتنا العربية.. تبثها إذاعات بعيدة منذ اللحظات الأولى من الصباح.

اشتعل القلب غيظًا.. وانتفضت على يوم حارق تشوى فيه الجباه والصدور.. تصاعد مد الغضب.. تحمل أسباب ريح عقيم - تجعل كل شىء - وبتعبير القرآن الكريم - كالرميم!

لما جاء فى الذكر «تذكرت».. استعذت بالله مما نحن فيه.

تمالكت نفسى..

الله واسع عليم.. واسع التصرف والقدرة عليم بوجوه الحكمة..

أمرنا أن نتدبر كلماته.. نبصر بها.. نقيس الواقع والماضى..

تمتد رؤانا إلى المستقبل الرحيم.

هى بيان لنا.. وشفاء.. وهدى ورحمة..

«التلاوة».. بها نهدأ ونستريح..

نزداد سعة من العلم.. وبسطة فى الفهم.. وتنقلنا المعرفة إلى مرحلة العمل الصالح.. والفعل المجاهد..

ويجعل الله لنا «آية».. ونورًا.

- كتاب فصلت آياته - من لدن عليم خبير..

- نتلوها بقلب سليم - وقد جعلها ربى «حقًا».

﴿إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾.

سبحان الله.. أتريد وضوحًا أكثر من هذا.. وحكمًا وعلمًا؟.

ترى هل نسير ضد سنة الله ونتخذ كتابنا مهجورًا.. ونولى وجهتنا الاتجاه الخطأ.

ما الذى يجرى على مسرح الوطن العربى الآن.

المذابح.. وقطع دابر الفلسطينيين، وتحريق لبنان.. ووأد الفدائيين.. واستئصال المجاهدين.. سحق المخيمات والبيوت بجدرانها ونسائها وأطفالها..

أخرجونا من ديارنا.. وأبنائنا وأموالنا..

ورفضوا أى اعتراف بالحقوق.. أو الأرض.. أو الانتماء

فلماذا نلق إليهم بالمودة.. ونبرهم..

ونعقد لهم فى المغرب العربى مؤتمرًا.. يتم تحت شعارات التسامح الفكرى والدينى.. وروح الحضارة..!

هل وصل بنا الأمر بالتزيف حتى على أنفسنا..

نستر الحقيقة الموضوعية لما يدور.. ونعلن للناس شعارات مزيفة.. ومسميات غير حقيقية تجنح مع الأهواء.

إن الأمم إذا قهرها عدوها.. ونكل بها.. واستبد فى الاستهانة بقيمها.. وعمل على تصعيد عمليات الإرهاب والانتقام.. أفسد مكانتها وجعل من أقوامها «بورًا» وناسها «خشبًا مسندة» لا أشخاص حقيقيين.. تغلب عليهم الذلة والمهانة والخزى والخذلان..

إن الحد الأدنى من الموقف الواجب اتخاذه هو القطيعة أو الصمت، وهو أضعف الإيمان.

أما أن نحتفل بهم ونقيم المهرجانات.

ويتم ذلك على أرض إسلامية، نكون بذلك - كما وصفتنا الآية - من الظالمين.. الذين ظلموا أنفسهم وضلوا هداية الفطرة السليمة.. وخالفوا الشرع المستقيم.

ينهانا الله عن ذلك السلوك.. ويصمنا «بالظلم» وهو سبحانه حق وعدل لا يحب المفسدين..

وقد جاء التساؤل القرآنى أيضًا ولم لا نقاتل وقد أخرجونا من

ديارنا وأبنائنا.. وكانت القصة القديمة عن قوم أخرجوا من ديارهم وتم سبي أبنائهم..

فأى شيء يقعدهم عن القتال.. وهو جهاد فى سبيل الله. ومن يذود عن الحرية.. والكرامة والحمى.. ومستقبل الأبناء.. يجاهد فى سبيل الله.

وإن كانت تعوزنا الإمكانات المادية الآن.. فلا يجب أن تنقصنا الروح.. أو العمل الصالح والإعداد.. وحسن التربية والأداء.

المجاهدة للفساد.. والمذلة.. والهوان على الناس. تحت نير الظلم والاستبداد. لا تصير «فروسية» أن نقيم اللجان والمؤتمرات.. ونعطى لهم فرصة أن يزعقوا بنداء «السلام».. وهم حرب على السلم والحياة. لا نستطيع أن نسمى أنفسنا متحضرين.. ومتسامحين.. وهم يمثلون بنا ويقتلون أبناءنا.. ويسلبون الأرض التى وهبنا الله إياها..

قضية فلسطين بمثابة القلب فى أمة العرب.. خرجنا معهم.. وتشردنا بين دروبنا.. وتساقط منا الشهداء والأبناء.

وهنا يأتى دور المصلحين.. والمؤمنين حقًّا.. والراسخين فى العلم وعليهم أن ينبهوا إلى خطر الاستكانة.. وتزييف الحقيقة.. وخداع تصوير الواقع.. عليهم أن يثبتوا ويجاهدوا بقيم الدين والتزام الحق.. علينا واجب إعادة إحياء روح الأمة.. وبث روح الشجاعة والإقدام.. وتأدية الشهادة.. والاستشهاد فى سبيل الله.

لنجعل قبلتنا الله ومرضاته.. وجهادًا فى سبيله وذلك يكتب لنا النصر والعزة..

لقد أعطانا الإسلام قاعدة أصولية فى طريق العيش.. وتدبير شئون المجتمع.

ونهانا عن المذلة والخداع.. والابتعاد عن صبغة الله. ومحاولة فرض ذلك من منبر قوة.. أو منصة سلطة ونفوذ.. وتبين لنا فى كتابه وآياته الكبرى دليل الرشد من الغى.

ومن ذريتى

أحب الدعاء

يستقيم به قلبى ولسانى.. يتجدد بـه عقلى ويـومى ووجـدانى.. يتصل بالعزف الداخلى.. يحرك قـوى كامنـة.. ويـطلق فى النفس طاقات الخير.

يومض نورًا فى الحس.. ويخلق نـوعًا مـن الحـدس الغـنى.. ويوجد حالة من الجلاء البصرى والرؤية المستقبلية.

الدعاء يشحذ الإرادة.. ويفجر الرغبة فى العمل.. ويؤكد سبل الانتصار.

(الدعاء لا يمثل ضعفًا أو استكانة.. وإحساسًا بالعجز.. بل هو سلاح للمواجهة.. وتدريب وإعداد للنفس.. وأخذ بـأسباب التفـوق والفوز.. وتزود بالتقوى وخلق القرآن)

إيحاء بالغلبة والثبات.. وتثبيت للخطو والفؤاد.

هو المناجاة.. والبث إلى الله.. تطهير النفس من الروع والجـزع والمشاعر الضارة والإشفاق على الذات.

إعلاء للهمة. . وتصعيد للقوة. . وراحة ومتعة وإشراق. . محاولة الخروج من القدرة المحدودة إلى سعة الواسع. . وقدرة العليم. . القربى من الله. . التشبث بحبله المتين. . التطلع إلى الميزان. . الالتزام بقيم العدل والصلاح. . التدرج إلى مراحل الأنس والود والحنان.

الدعاء يتطلب طهارة القلب والكسب. . وعفة اليد واللسان. . نظافة الثوب والبدن - حتى نوقن بالإجابة -.

تمرينات عقلية وروحية. . عمل وسعى وجهاد.

وسيلة لإعادة تقييم الموقف. . وبيان تقرير عن الحالة. وبذلك ينمو فعل الدعاء. . يعيننا على التطور. . التحول. . والاكتشاف. . يتنزل علينا بردًا وسلامًا.

نعود لنمسك بزمام أنفسنا. . نستعيد السكينة. . وترتفع نغمة الطمأنينة نصبح قادرين على القياس والمنطق. . وتبين الحال.

أدعو بالعشى والإصباح

يبحر فى دورة الدم - يتنزل إلى قاموس البحر فى الأعماق. . يلثم شغاف الخلايا. . يوقظ مراكز الحس والأعصاب. . تتفجر النواة. . تنطلق قوى الحركة الصحيحة والأداء.

الرحمن علمنا القرآن. . علمنا البيان. . طلب أن ندعوه فهو قريب ويستجيب. . أتلو الدعاء القرآنى الجميل. . أقتدى برسول الله

عليه أفضل الصلاة والسلام (وهو المصطفى.. وهو القرآن فى التطبيق والخلق والعمل والجهاد - هو الرسول - مبشرًا ونذيرًا.. وسراجًا منيرًا - ويدعو الله آناء الليل وأطراف النهار - يشعر بحاجته أن يشكو إلى الله.. يديم عليه نعمة الحمد والشكر والثناء.. يتلو الدعاء فى السجود والركوع والقيام وحين المنام.

يقود أعظم ثورة فى الإصلاح والعدل والتحول فى النفس الإنسانية والكون وإعادة الوحدة بين الناس.. والفتح فى طريق العمل والسعى وحكمة الخلق.. ويبتهل بالدعاء).

صارت هواية ومتعة لى.. التدرب على الدعاء.. جعله على النسق الحكيم. وترتيب السياق.. النفاذ إلى جوف الكلمات.. والاحتماء برحم الحب والحنان.

أقوم بعملية بناء.. وتجربة معملية موصولة بعلم السميع المحيط.

أحدد موضع الألم لدى.. نوع المعاناة.. نسب الاحتياج.. أستدعى ذات اللحظة من قلب الآيات.. من قمم «القصص الحق»..

وأنظر كيف تمت المواجهة.. وتطور الموقف.. وماذا جمع له أولو العزم من الرسل - وما كان الدعاء - أصوغ دعائى من جديد.. أجعله رابيًا.. موائمًا لمقتضى الحال.. وملائمًا لما أنا فيه.. أتبع أمر «قل» إذا صدمنا سؤال.. أو ألق إلينا بمحاجاة. - وتجىء

الآية بالبشرى - أجدها حاضرة.. شاهدة.. تومض بالكشف.. تبرق بالمعرفة.. ترسم فرجًا ومخرجًا.

أرفع صوتى.. أو أخافت به.. أتابع الشدو والنشيد.. أقيمه صامتة فيدير «المحرك الداخلى» وتستجيب لحركته سائر الأعضاء.. - أجعله يتخللنى - أهب نفسى تمامًا للكلمات.. أصل إلى مرحلة التشبع.. وقمة التصور والتجسيد.. والتركيز.. وامتلاك اللحظة الإنسانية.. والسيطرة الكاملة على كل الأجهزة والانفعالات.. وتبرق الحلول ويبين أسلوب الأداء.

أحب دعاء خليل الله إبراهيم عليه السلام - (لا يكاد يخلو سجود لى من دعاء على نحو ما كان يفعل ويقول: أشعر بذلك أنى أدخل منطقة الظل الظليل.. تحتوينى شجرة النبوة وارفة الثمار.. نحتمى من تفاقم الصراع.. ونيران الحريق.. ولهيب المعاناة والمحاجاة.. وهجير الكيد والمكر والدهاء.

فى لحظة نسكن إلى الظل.. ونركن إلى النجاة.

أحب قصته وهو فتى نضير يقلب وجهه فى السماء.. تنمو فى قلبه بذرة التوحيد بفطرته السليمة - يقول: «لا أحب الآفلين» الشمس والقمر - إذ لابد للكون من إله واحد بديع.. كامل.. ويتقن كل شىء صنعًا.

قصة حياة رائعة تصنع فصولها - على أعين الله - وبوسعنا

وتحت ضوئها.. أن نتوقف بقصتنا كل حين.. ونجدد أسلوب العمل والحياة.

استوقفنى خاطر جميل حقًا.

هذا النبي.. يدعو دومًا - بصيغة الجمع - يرى نفسه «جمعًا».. ويرجو الله ألا يذره فردًا - يسعى إلى ذات كلية.. يسأل الله تعالى أن يجعل بلده آمنا.. ويرزق أهله من الثمرات.. ويجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم. كلماته «تضم».. تنظم الناس فى عقد فريد: تمدهم برباط المودة والحب والرزق الوفير.. والقلوب المتآلفة..

يحس بنوع من «الوسع» والأبوة.. والمشاركة الإنسانية الحقة. فى كل مناجاة له لله.. يطلب الرحمة والمغفرة والخيرات للناس.. للمؤمنين.. لقومه - ومن ذريته - يحب الامتداد والنمو.. والغلبة.. ووحدة الأمة والجماعة - كان أمة قانتا لله حليمًا.. (جعله الله شجرة للأبوة والبنوة حقًا.. ودعاه الخليل).

﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إنى جاعلك للناس إمامًا قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين﴾.

هكذا يأتى الحديث الربانى على نسق مركز وسريع.. صور مكثفة.. مجسدة. موحية.. توقد الذهن وتتنفس حياة.

لم يقل لنا سبحانه «الكلمات» ولكن المهم بالدرجة الأولى أنه

«أتمهن».. أقام كلمات ربه على أحسن وجه. وأكمل أداء.. جعلها أسلوب حياته وعمله.. أنجز المهمة.. ومارس ما كلف به.. (قد تكون هي دعوة التوحيد.. أو الابتلاء بالشدة) لكن نقطة الانطلاق في الجملة والتصعيد نحو غاية الحديث هو القرار.. والإخبار بجعله إمامًا للناس - ولم يقل لنا أيضًا أن الاختبار كان بسبب إتمام الكلمات - ولكننا نفهم أن الذي يجاهد ويصبر ويسعى للمعرفة والعلم ويتقن عمله كان يتأمل ويفكر.. ويلتزم بالاستقامة والعمل على نفع الناس.. والصمود أمام العقبات وألوان الشدة والعنت جدير بالاختيار.. والاصطفاء.. والتقدم والرفعة وتحمل المسئولية.. ومكان الريادة للجموع.. وإمامة الصفوف.. والطليعة في مسيرة النضال.

لما جاءت البشرى إبراهيم.. في ظل الفرحة الغامرة.. وقمة الرضا.. وتمام الحمد.. وإدراك تبعة المهمة الجليلة هتف على الفور:- ومن ذريتي -

عرف الرسالة.. وتقبل التكليف.. وانشرح صدره لرضاء الله.. والتمكين له في الأرض، وسأل بكل العرفان والخشوع.. أن يجعل من ذريته أئمة أيضًا. (ليس ملكًا يورث.. ولا ترفًا يسعى إليه.. أو جاهًا ومكانة.. لا يسأل من أجل أن يتمتعوا بالعلو والثراء..).

بل لأنه عمل أشد وأكبر.. ومسئولية أضخم.. وطريق أرحب للقرب من الله، والعمل لكسب رضاه.. والجهاد في سبيله.. والمزيد من الخضوع والتقوى وتحمل الابتلاء بالحكم والرئاسة.

هى المسئولية المتصلة بالله - وذلك هو المجد والشرف والعزة التى يريدها للموهوبين من ذريته - لابد لرسالة التوحيد من دعاة أبرار.. ومناضلين أشداء - هى الامتحان بالتمكين فى الأرض.. والابتلاء بمنصب الراعى الإمام أو الأمير. والتى تعلى من قدر الإنسان وذكره.. إذا جعلها عدلا وتقوى.. والتزامًا بحدود الله.

المسئولية المتصلة بالله التى تجعل من تولى الأمر خادمًا للقوم.. وأكثرهم قدرة على التضحية وإنكار الذات.. والاهتمام بالآخرين والسهر على رعاية مصالحهم وأحوالهم.

كان يتسم بالحكمة.. والخلق الحسن.. ويلتزم بأدب الدعاء.. (لم يقل - فى ذريتى - بل قال: ومن ذريتى)

فهو يعلم أن الذرية لا تكون صالحة كلها - أو جديرة بتحمل الرسالة.. وشرف الدعوة.. وتبعة المسئولية. (منهم محسن وظالم لنفسه مبين)

هو لا يسأل من أجل أن تتمتع بعض الذرية بأهمية الوضع او علو المكانة.. ومركز الصدارة من القوم.. بل يطلبها للمختارين الذين يقدرون على تحمل الأمانة.. ويحملون التبعة ويكونون أهلا للمسئولية والقدوة الحسنة. هو يرجو لهم حلاوة العيش النبيل فى ظل رسالة مقدسة..

حياة فاضلة فيها التزام بالحق وإقامة للعدل والأمر بالمعروف بين الناس. أدرك أن «الإمامة ليست منصبًا» لكنها أسلوب حياة..

وطريقة عمل وجهاد فهتف بالدعاء بصوت يقطر حنوًا ومحبة.

﴿قال لا ينال عهدى الظالمين﴾

أجاب الله سبحانه سؤال إبراهيم - بأن يجعل من ذريته أئمة - تتواصل فيها دعوة التوحيد..

- الإجابة ضمنية - ولكن التنبيه.. والحقيقة المؤكدة - العهد لا يناله الظالمون - هذا هو الأساس..

وهى الفكرة الرئيسية.. والفضيلة الأولى..

من يظلم لا يصح أن يكون «إمامًا».. ولو كان من بيت نبوة.. وصلب أنبياء.. ودعوة بظهر الغيب لخليل الله - إبراهيم.

إذا كان من الذرية.. ومن السلالة.. ومن الجذور الطيبة من يظلم نفسه.. ويأخذ بأسباب الاستكبار والإسراف.. يريد العلو فى الحياة الدنيا.. أو جاء بسلوكه شبه ظلم وانحراف.. فهو لا يصلح للعهد..

وتلك تذكرة.. ونهى مؤكد.. وآية بينة لبنى إبراهيم.. وأبناء العالمين.

من يريد إعداد نفسه لمهمة كبيرة أو يتصدى للمسئولية العامة وإدارة شئون الناس.. يجب أن يطهر نفسه من كل ظلم.

شرط الإمامة والقيادة والرئاسة ألاّ يكون المرء «ظالمًا».

من يريد أن يصل إلى مكان الرفعة والعزة والمحبة من قلوب

الناس، فليذهب عنه خطيئة «الظلم» - الظَالم لا يصلح لتولى منصب الإمامة -

- العدل - جواز المرور.. وزورق العبور إلى العزة والجلال والثناء ومحبة الله والناس.

العدل يصلحهم.. ويصل ما انقطع.. ويقرب بينهم.. ويجعل صلة مودة ورحمة.. قرب ومشاركة.. ويعتدل الميزان.

وهى قاعدة أساسية وهامة فى تربية النشء والذرية.. وبناء الإنسان والشخصية.

- الحق والعدل - القاعدة التى يجب ان يكبر الأبناء عليها.. ومنها تنطلق حركتهم وسعيهم..

القيمة التى تغرس فى قلوبهم.

وبذلك يثمر «التوحيد» فى جوف الإنسان.

- لا ينال عهدى الظالمين -

نقولها لهم.. نرددها بينهم كل حين.. نتلوها عليهم.. نجذبهم فى اتجاهها نجعلها - نجمة ميناء - ومرفأ الإبحار والوصول.

(موجزة العبارة.. بليغة ومركزة.. كأنها جرعة دواء وشفاء.. حبة نادرة للتداوى والعلاج.. خير حصانة ووقاية - وأشد تثبيتًا -)

الظلم هو المانع من منصب الإمامة..

- وياويل من يستعملون عمالهم وولاتهم على الأقاليم والقرى والحدود من الظالمين.

- لقد حذرهم الله نفسبه -
الحق بين.. والصحيح معلن.. والشهادة واجبة.
كيف تولى الأمور لمن يظلمون ؟
هى مسئوليتنا جميعًا - ورثة عبادة التوحيد - أفرادًا وجماعات.
وكذلك تبين الآية - أو بالقياس عليها - أن من يبررون الظلم للحكام - يقعون فى بئر الشرك والظلم - (هم وأوثانهم.. والأصنام من الحجارة والملوك والحكام).
وتحل اللعنة دومًا على الظالمين -
معيشة ضنكًا لهم - فى الحياة الدنيا.. حتى ولو كان لهم من الثراء والأبهة والحراس مثل حظ - قارون -
وفى الآخرة يردون إلى أشد العذاب.
فى الدنيا يلفظهم الناس.. ويسقطون من عرش القلوب - حتى قبل أن ينتزع منهم الملك - وينفض عنهم وعن مجلسهم أولو العلم والحكماء والمصلحون التقاة.. ويغيب عنهم كل مهابة أو عزة أو جلال. يعزلهم الناس - حتى لو كانوا يلتصقون بالمنصب على أسنة الرماح
الظالم لا يصلح أصلا للإمامة - للريادة.. القيادة أو تولى الأمر.
هو يفسد حال الدنيا والدين.
يصبح وجوده علامة مضللة.. وراية خبيثة.. وقدوة سيئة..

ومركزًا لدائرة شريرة تتسع للفساد والضلال.. وتشمل الأسر.. والمجتمع.. والحياة.

ندعو الله..

نعالج نظم الدعاء.. نمد بيننا والأنبياء والعلماء والمصلحين والمجاهدين بصلات محبة وقربى

يغمرني الدعاء .. فلا أعود مجرد «فرد».. أنفذ إلى وسع المحبة الإنسانية.. ودفء المشاركة.. وحرارة اللقاء..

أرنو لخليل الرحمن..

يدعو «جمعًا».. (كان أمة.. منيبًا.. قانتًا وحليمًا)

نقول بصيغة الجمع.. ولسان الجماعة..

«رب اجعل هذا البلد آمنا وارزق أهله من الثمرات.. واجعلنا مسلمين لك - ومن ذريتنا».

القوى الأمين

لحظة تساوى عمرا بأكمله..

فيها تشعر أن حياتك لم تضع سدى.. وغرس يديك قد أينع.. وأسلوب تربيتك أثمر وربا.. وتجسد بشرًا سويًا.

يأتيك الابن أو البنت يتحدث لديك بصراحة.. يعبر عن نفسه فى مواجهتك.. يبدى الرأى بقوة.. وحرية.. يعلن عن وجهة نظره.. والموقف الجدير به.. وأنت تسمع وترى.. تناقش بسرور عظيم.. وتستمتع بالأمر شورى بينكم.

شعور يساوى عمرًا بأكمله.. وحياة ثانية.

حين ترى الأبناء لا تنقصهم الشجاعة والإرادة.. ويسعون فى بناء أنفسهم وشخصياتهم.

هنا تشعر بالرضا - وهو العمل الصالح أيضًا.. وميراث التدين والإيمان.. قد خلفت ذرية حقًا - وهم ربيعك على الأرض..

شكرت نعمة الله وبطريقة عملية.. ساهمت فى إقامة إنسان.

قدته إلى إعمال الفكر.. والتأمل.. دربته ليكون رأيـا.. ويملك إرادة مستقلة..

تتابعت خواطرى وأنا أسمع الآية عبر الشرفة.. وكأنها موجات أثيرية تتدفق إلى حسى.. وتتصاعد أمام بصرى ووعيى.

﴿يأبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين﴾

أدرك الأب - النبي شعيب عليه السلام نبرة الصدق.. ولهجة الإعجاب لدى ابنته - كان قد أرسلها تدعو «الرجل» ليجزيه أجر ما سق لابنتيه. (وصفت الابنة - النبي موسى - بدقة وإكبار. ضمنت حديثها الإعجاب بشهامته وكرم أخلاقه.. ومسارعته لإعانة فتاتين على سقيا الأغنام.. وتلطفه بهما. سعى لهما عند ورد الماء.. ثم تولى إلى الظل يحمد الله ويشكر أنعمه.

لم يحاول أن يستغل الموقف.. ويتودد إلى الفتاتين.. أو يصرفهما عن العودة مباشرة.. ودعوتهما إلى الظل والراحة وتبادل الحديث.. وهى فرصة مواتية للترويح عن النفس.. والتسلية - وكما يحدث فى مواقف مشابهة -

كان سباقًا لفعل الخير.. أقدم على المساعدة.. وسارع فى تقديم العون.. ثم أوى راضيًا قانعا إلى الظل يدعو ويبتهل **﴿فقال رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير﴾**

ببساطة وفصاحة.. وصوت - لابد مغلف بالحياء التلقائى الجميل - والانبهار العفوى.. أشارت إلى قوته.. وأشادت بكرمه

ونبله.. ومتانة خلقه.. إذ دعاها للسير وراءه.. وهى تدله على طريق البيت - وكى لا يدع لنفسه فرصة أن يلمح قوامها وهيئتها وطريقة مشيتها.

تتبع الأب الحانى ما تقوله البنت.. أحس بمدى الحرارة فى الوصف.. والدفء فى المشاعر والكلمات.. والتأثر بنبل الأخلاق.. وعفة النفس وأمانة التصرف.

« الدقة والاهتمام فى التقرير.. وحسن تقييم الموقف. »

وأراد أن يطمئن قلبه.. فدعاه.. ووجد أن ما قالته حقًّا.. موسى يستحق بالفعل.

ومنه عرف تفاصيل حكايته.. ونضاله.. وتآمر القوم به.. وفراره من القوم الظالمين - بعد أن دافع عن الحق.. وانتصر له.. وقومه بيده -

(لم يرع حتى أنهم ربوه فيهم صغيرًا.. فالحق أحق أن يتبع - وهو أقرب من صلة الدم.. والروابط الاجتماعية.. وأواصر القربى والنشأة والتربية)

- الوقوف بجانب الحق - هو غاية خلق الإنسان.. واحترامه لنفسه.. ومعنى وجوده - (وتلك الميزة الأولى.. والعلامة البينة بشخصية الأبطال.. والثوار.. والمصلحين.. والكتاب.. وذوى الرسالات والمناضلين)

درس الأب الموقف بعناية..

البنت معجبة - وصوتها يقطر أملا - تريد أن ينتهى الموقف نهاية سعيدة.. وموسى يستحق الإعجاب والمودة.. وينتظره عمل عظيم.. ومهمة جليلة. لم يكن الأب ليقل جرأة وشجاعة.. ووضوح رؤية..

- الارتباط فى صالح الجميع

الأسرة والدعوة..

مستقبل ابنته.. ورباط القربى والصداقة.. ومستقبل دعوى الحق والعدل. حسم الموقف.. وبلا مناورة أو مداراة طلب منه أن يتزوج ابنته.

قالها بصراحة - يريد ليزوجه احدى ابنتيه - التى جاءته على استحياء - على أن يعمل لديه ثمان سنوات - ومن عنده لو جعلها عشرًا - فلا يريد أن يرهقه..

(طلب مهرها - وقدره - ستكون سنوات عمل.. وتدريب وجهاد.. إعداد للمواجهة.. ونشر الدعوة.. ومنازلة البغى والضلال).

وما فيها أن يخطب الأب لابنته..

مادامت المودة بادية.. وطيب الخلق.. وأصالة السلوك.. والقيم التى تبنى عليها الشخصية التصرف والتعامل مع الآخرين.

لماذا يضيع الفرصة.. أو يموه الأمر.. ويدور حول الهدف.. ويزين الأحاديث ويشد الكلام حتى يوحى للرجل بطلب الزواج.

لماذا لا يكون من حق الأب أو الأم وولى الأمر.. أو الفتاة.. أن تعلن عن رغبتها بكل الوضوح والصدق..

فى مسائل العقود والارتباط.. والمواثيق.. والعهود.. والرفعة فى طريق الحياة.. والمشاركة والمحبة والزواج.. الشجاعة أجدى.. وتحديد الهدف أكثر قيمة واحترامًا.. ويبى، عن الثقة بالنفس والطرف الآخر.

وللقصة دلالة بديعة أيضًا..

الصراحة والثقة لابد أن تكون متبادلة بين الأهل والأبناء. الفهم الواضح المشترك بينهم.. تعويد الأبناء على قول الحق.. وحديث الصدق.. وتقرير الواقع.. تربيتهم على الاعتقاد أن قيمة الإنسان فى عمله.. موقفه..

تدريبهم على الحكم الصحيح على الأشياء.. وممارسة النظرة السليمة.. والشجاعة فى إعلان الرأى.

تقدير الكبير لمشاعر الصغار.. واحترام عواطفهم والعمل على تمكينهم من أهدافهم النبيلة.. ومن أخذ القرار..

نضىء لهم الطريق بواقع تجربتنا.. ونتيح لهم ما تعلمناه من خبرات.. ونبذل لهم النصح ونكون قدوة فى العمل والإيمان.

- أين نحن الآن من هذه العلاقات الأسرية الحميمة؟

وإلى أى مدى يعانى الشباب!..

هذه القسوة السائدة فى مواجهة إعلان الرأى.. القيود التى توضع على حرية التعبير..

(أحيانًا إذا ذكر الحب.. والرغبة فى الاختيار - وحق تقرير المصير.. واختيار شريك الحياة - تهب رياح الحرب.. وينشب الخلاف.. ويتحزب أعداء الحب والحياة).

لحظة لهذه - التى نصت عليها الآية - من أحسن القصص.. من قصص القرآن.. والذروة الفائقة التى وصلت إليها اللحظة المضيئة.. تساوى عمرًا بأكمله..

تعنى حياة مشتركة.. سكنًا.. مودة ورحمة.. ولقاءً إنسانيًا يصنع وحدة اجتماعية سليمة.. متفاهمة.. ويتيح الاستقرار والتعاون وتبادل المعرفة والخبرات فى جماعة طيبة.. ومجتمع سليم.

قمة علينا بلوغها.. واستلهام الحكمة فيها.. والوصول إلى غايتها.. والقياس بمقياس الدين.

أن يكون «ولى الأمر» هكذا.. مفعمًا بالود والحنان والمشاركة الوجدانية.. وإدراك مشاعر الصغار..

أن يكون فى معاملته.. وأسلوب حياته قد أقام الدين حقًا.. وأقام القرآن..

(وأقصد بولى الأمر - الأب والأم.. المسئول.. الحاكم أو الإمام) أن يكون هو نفسه ميزانه العدل.. ومقياسه الحق.. لا يستبد ولا يطغى ويستهويه التحكم بمصير الناس.. ويقرر حسب هواه).

ويكون من ذلك النوع الذى يدرك أن معنى الوجود فيما يحققه من مصالح الناس.

(العدل يصلح كل الأشياء.. والظلم يعطب الأنفس.. العواطف والأسرة والأوطان).

ومن جانب الأبناء عندما يستمع إليهم ذووهم.. يشجعونهم على حرية الرأى. واتخاذ القرار.. يحسون بالأهمية.. بالمسئولية.. بالحب والانتماء.

- القوى الأمين -

صفتان لو اجتمعتا فى رجل لكان نعم الزوج.. الصديق.. الزعيم.. القائد أو السلطان.

ويضرب لنا الأب النبى - المثل.. هو يطرق السبيل الطبيعى لبلوغ غايته.. - الطريق المستقيم أقرب الطرق - وجده حقًا - القوى الأمين - نعم الزوج للابنة..

ويعلموننا فى أسس التربية السليمة أن نكون أصدقاء لأبنائنا.. نتفهم ظروفهم المستقبلية..

ونتعرف على مشاعرهم وأفكارهم.. نحترم اختيارهم - ماداموا على حق -.. ومن خلال القيم والمبادئ الإنسانية الحقة.

فأين نحن الآن من ذلك الزمن البعيد؟

ما بالنا - وندعى التقدم والتحضر ورسوخنا فى العلم والمعرفة ودراسة أساليب التربية الحديثة.. نبتعد عن الحكمة التلقائية.. ونهجر

القرآن. «الذى يقص علينا أحسن القصص - ونزل ليكون هاديا ومرشدًا ونورا»

ما بالنا نرغم فتياتنا على الزواج من الأثرياء.. من يملكون فقط فى مقدمة المكرمين بالنسب والزواج - دون النظر إلى حقيقة الشخصية.. مقومات الخلق والعمل.. دون البحث عن المصدر الحقيقى للثراء.

نحرم نساءنا اختيار (القوى الأمين)، وفرصة المجاهدة فى الحياة.. والسعى من أجل إقامة المعيشة.. والتزود بزاد التقوى والثبات. نزين لهم طريق الترهل.. وحب المظاهر والترف.. والاعتماد على الغير دائمًا.

يحررنا الإسلام.. ويضرب لنا الأمثال.. ويعلمنا بطريق الحق.. وأن العمل الصالح غاية حياة الإنسان.. فنأبى إلَّا أن نكون عبيدًا للمال.. أذلاء للجاه والسيطرة.. والركون إلى حياة الكسل والمظاهر والإثراء من أى سبيل أو اتجاه.

نترك قيم الحب والمودة وطريق الاستقامة والعمل الحلال وأمانة النساء والرجال.

الإنسان لا يعيش بالتناقض داخله.

لا يمكن أن يكون تاجرًا غشاشًا وزوجًا أمينًا..

عاملا مزيفًا.. ورب أسرة مخلصًا..

كاتبًا يدعو للتقدم والحرية ويخون الأسرة والأصدقاء..

مسئولا يرعى مصالح الناس.. ويأكل هو وذووه المال الحرام..
الإنسان وحدة.. لا يوجد هذا الانفصام الشبكى داخله.
فاختاروا لبناتكم.. وأسركم.. ولشعوبكم - القوى الأمين -
يقوى على العمل والجهاد.. ومقاومة الشر والفساد..
ويؤمن على المسئولية.. والالتزام والتمسك بقيم الحق والعدل.

فهرس

صفحة

اقرأ فى هذه المجموعة

صوت أبى العلاء	د . طه حسين
أحلام شهر زاد	د . طه حسين
فى بيتى	عباس محمود العقاد
الشيخ الرئيس ابن سينا	عباس محمود العقاد
المهدى والمهدية	أحمد أمين
الصعلكة والفتوة فى الإسلام	أحمد أمين
خاتمة المطاف	على الجارم
أبو نواس	د . عبد الحليم عباس
دماء وطين	يحيى حقى
العشاق الثلاثة	د . زكى مبارك
سيكلوجية الجنس	د . يوسف مراد
النسيان	د . أحمد فؤاد الأهوانى
الحب والكراهية	د . أحمد فؤاد الأهوانى
الوجودية والإسلام	محمد لبيب البوهى
الأمن والسلام فى الإسلام	د . جمال الدين الرمادى
الغزالى	طه عبد الباقى سرور

الإمام المراغى	أنور الجندى
بنت قسطنطين	محمد سعيد العريان
شاعر الشعب	د . سامى الدهان
قصص الحب العربية	د . عبد الحميد إبراهيم
غرائب الرحلات	محمد عبد الغنى حسن
عود على بدء	إبراهيم عبد القادر المازنى
غرام الأدباء	عباس خضر
أبو زيد الهلالى	محمد فهمى عبد اللطيف
عبد الرحمن الجبرتى	خليل شيبوب
ليلى العفيفة	عادل الغضبان
نساء محاربات	صوفى عبد الله
أبو القاسم الشابي	رجاء النقاش
جابر بن حيان	محمد محمد فياض
الصديقة بنت الصديق	عباس محمود العقاد
الكعبة على مر العصور	د . على حسنى الخربوطلى
غادة رشيد	على الجارم
الأحلام والرؤى	د . عبد العزيز جادو
النوم والأرق	د . أحمد فؤاد الأهوانى
جحا فى جامبولاد	محمد فريد أبو حديد
عمر بن عبد العزيز	أحمد زكى صفوت
نديم الخلفاء	عبد الستار فراج

طاغور	د . جميل جبر
طرائف من التاريخ	مصطفى الشهابى
تيمورلنك	محمد محمد فياض
شيخ التكية	محمد عبده عزام
المدينة المسحورة	سيد قطب

رقم الإيداع		١٩٨٧ / ٤٤٥٥
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-٢٠٧٨-٧	ISBN

١ / ٨٧ / ٥٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

اقرأ

بهذا الفعل الجميل (اقرأ) : تدعوك دار المعارف إلى قراءة تراث هذه السلسلة العريقة .. بأقلام كبار كتابنا .. لتعيش معهم .. كما عاش الآباء والأجداد .. وتكوِّن فى مكتبتك موسوعةً متفرقة فى فروع المعرفة المختلفة .

وإيمانًا منا بأن القراءة هى أقصر الطرق إلى الوعى والثقافة .. فقد يسَّرنا لك ذلك فى إخراج جيد .. وسعر زهيد .

٤٠٥٨٠٩/٠١

